مركز مدارك للتنمية والدراسات الإسلامية
إصدارات المؤسسة: ٣٦
إصدارات المركز: ٢٤

يقولون: لا إله ونقول: إلا الله

الشيخ حيدر الوكيل

يقولون: لا إله... ونقول: إلاّ الله

حقوق الطبع محفوظة

هوية الكتاب

اسم الكتاب: ..... يقولون: لا إله ... ونقول: إلّا الله

المؤلِّف: ..... حيدر الوكيل

الطبعة: ..... الثانية

قطع الورق: ..... رقعي(١٥× ٢١)

عدد الصفحات: ١٦٥٨

سنة الطبع: ..... ٢٠٢٥م / ١٤٤٦هـ

يقولون: لا إله... ونقول: إلاّ الله

حيدر الوكيل

الإهداء

إلى من تغمره هموم الإسلام مبدأً

إلى من يهتمّ للإسلام لأنّه كلمة الحقّ

إلى من يرغب بكلمةٍ كُتبت لا لأجل شيءٍ

سوى الحقيقة

هٰذا الكتاب..

مختصرٌ في مقاربة استفهاماتٍ ارتسمت في زماننا هٰذا على صفحات الفكر، وأدّت إلى حراكٍ نحو رفض الدين..

وقد تركنا التوسّع في البيان والاستقصاء أكثر إلى مشروعٍ آخر موسّعٍ، وإلى جهود الإخوة الباحثين، سدّد الله خطى الجميع، ووفّقنا لما يرضيه، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

مقدّمة المركز

عوّدنا سماحة العلامة الشيخ حيدر الوكيل (حفظه الله ورعاه) أن لا ينقضي من كتابٍ حتى يباشر بآخر، بل وقد تكون بين يديه مشاريع متعددة في وقت واحد.

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يترفع عن التبسيط المخل، ويرتقي الى التعليم الواضح، فتجد فيه موسوعية الكاتب، وانتقالات ممنهجة، وترابطات واضحة، وإحالات وافية، ونصائح شافية، ودقة المطالب، وسمو المعاني؛ فمزج مباحث علم الكلام الكلاسيكي بمباحث علم الكلام الجديد، وربط بين النصوص الشريفة والتحليلات القيمة، ونظّم بانتقالاتٍ جميلة بين الشخصيات الإيمانية والشخصيات الإلحادية، وحافظ على الأمانة العلمية في كل نقولاته.

ومن كل ما سبق ينبغي لكل مثقف –مؤمنٍ أو ملحد– أن يدرس هذا الكتاب، ولا يطالعه مطالعة عابرة، وأن يتفهم مضامينه، ولو بالرجوع إلى بعض المصادر التي أرجعه اليها الشيخ المؤلف.

ونظراً لهذه الأهمية لهذا الكتاب وأمثاله حرص مركز (مدرك) على

أن لا يفوّت الفرصة في تحصيل الأجر والثواب بطبعه ونشره؛ فجـزى الله المؤلف خيرا، وجعله في أول المؤمنين ولوجا الى الجنة، وفي أحسنهم مقاما في دار الدنيا، إنه سميع مجيب.

إدارة مركز مدرك

مقدّمةٌ

بسم الله الرحمٰن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّدٍ وآله الطاهرين.

ما زال الفكر الإنسانيّ يتكامل من خلال أمرين: أحدهما: التراكم المعلوماتيّ، والآخر التأمّل والتفكير في ما عندنا من معلوماتٍ؛ فنجد أنّ النضج وليد هٰذين الأمرين، وليس من الصعب أن تقف أيّ فكرةٍ أمام النقد والتساؤل والتأمّل، ولا تشكّل تلك التساؤلات خطراً على الفكر - أيّ فكرٍ كان - بقدر ما تقدّم الخدمات الكبيرة للنضج الفكريّ والوضوح. ومن هنا فإنّنا لا نجد في وضع أيٍّ من الأفكار الدينيّة موضع التساؤل والتأمّل محلّاً للإشكال، بل ندّعي أنّ الإسلام هو دينٌ يدعو إلى التعقّل والتأمّل، فلا يصحّ بحالٍ من الأحوال وضع الدين الإسلاميّ موضع الانتقاد بحجّة سدّه المنافذ على الفكر الإنسانيّ، بل نعتقد أنّه فتح الباب على مصراعيه للتعرّف الواعي على مبادئه، وترك للإنسان حرّيّة الاختيار، ومن ثمّ تحمّل المسؤوليّة الناجمة عن ذٰلك الاختيار.

هٰذه الأبحاث وليدة تساؤلاتٍ وآراءٌ لأخوةٍ لنا في الإنسانيّة، تجمعنا معهم رابطة (كلّكم لآدم)، نظنّ بهم خيراً رغم الاختلاف معهم، وما أطمح له هو وضع لوحات الفكر واضحة المعالم أمامهم؛ ليعرف أَنَقْدَهُ صحيح أم لا؟ وأنّ ما يشكل عليه مورد إشكالٍ بحقٍّ أم لا؟

فكثيراً ما نشكل على فكرةٍ، ونعتقد بعدم تماميّتها لأنّنا تسرّعنا مثلاً، أو لم نتأمّل بما يكفي، أو لأنّنا لم نطّلع على الفكرة بشكلٍ كاملٍ وواضحٍ.

السؤال حقّ للكلّ، والجواب يقع على عاتق من يعلم، والخلق الرفيع يحكي عن إنسانيّة الإنسان، وهٰذه سطورٌ وآراءٌ في بعض ما اطّلعت عليه من تساؤلاتٍ أودت بإيمان قومٍ، وجعلت جمعاً آخرين في مهبّ ريح اللا دين؛ راجياً أن تكون خطوةً باتّجاه نضجٍ في فكرٍ، أو وضوحٍ في رؤيةٍ، أو مزيدٍ من وعيٍ.

حيدر الوكيل

النجف الاشرف – ٢٩ رجب

الأصبّ ١٤٣٧ هـ

٧ أيّار ٢٠١٦ م

تمهيد
نبذةٌ عن تاريخ الإلحاد

يقول الباحث السوريّ فراس السواح[1]: «الإنسان هو كائنٌ متديّنٌ»[2]، ورغم صدق هٰذه المقولة حيث الشعور الدينيّ المتأصّل في الإنسان، المنعكس على حياته، في سلوكه وولائه، وجد على مرّ الزمن أناسٌ رفضوا الاعتراف بوجود إلٰهٍ، متمرّدين على نداء الفطرة، طالبين التحرّر من قيودها.

وجاء في القرآن الكريم: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۞ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۞ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۞ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ

---

(١) كاتب سوري تخصص في الاديان والتاريخ القديم ولد في حمص سنة ١٩٤١م

(٢) دين الإنسان.. بحثٌ في ماهيّة الدين ومنشأ الدافع الدينيّ، فراس السواح، منشورات دار علاء الدين، سوريّا ـ دمشق، ص ١٥.

يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۞ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَخۡسَرُ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾[١].

ومن هٰذا النص الشريف نفهم وجود الملحدين في زمنٍ متقدّمٍ من عمر الإسلام، بل قبله. يقول السيّد المرتضى علم الهدىﷺ: «حكى أبو عيسى الورّاق في كتابه (كتاب المقالات) أنّ العرب صنوفٌ شتّى: صنفٌ أقرّ بالخالق وبالابتداء والإعادة، وأنكروا الرسل وعبدوا الأصنام، زعموا لتقرّبهم إلى الله زلفى (ومحبرا إليها)[٢]، ونحروا لها الهدايا، ونسكوا لها النسائك، وأحلّوا لها وحرّموا. ومنهم صنفٌ أقرّوا بالخالق وبابتداء الخلق، وأنكروا الإعادة والبعث والنشور. ومنهم صنفٌ أنكروا الخالق والبعث والإعادة، ومالوا إلى التعطيل والقول بالدهر، وهم الذين أخبر القرآن عن قولهم: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُ﴾»[٣].

فهٰؤلاء الملحدون كانوا بعض العرب، وقد أنكروا الخالق والبعث، واستمرّت حركة الإلحاد في المجتمع الإسلاميّ، وكانوا يُسمّون بـ "الدهريّة" أو "الزنادقة"، وقد جرت بينهم وبين الأئمّة الهداة

(١) سورة الجاثية: ٢٣ – ٢٧.

(٢) هكذا في المصدر.

(٣) رسائل المرتضى، الشريف المرتضى، ج ٣، ص ٢٢١.

من آل البيت عليهم السلام المناظرات والحوارات. ومنه نفهم أنّ هناك جوّاً من الحرّيّة لهؤلاء ليدلوا بأفكارهم، ويناقشهم الأئمة عليهم السلام حولها، بل إنّهم كثيرون، ففي كلام الإمام موسى الكاظم عليه السلام مع هارون العبّاسيّ: «فإنّ الزندقة قد كثرت في الإسلام»[1].

وسيأتي في الفصل الأخير من هٰذا الكتاب نماذج من حوارات الإئمّة عليهم السلام مع الزنادقة.

وصارت تلك الأفكار منتشرةً بين الناس، تأخذ حيّزاً محدوداً لا جذور له مهما بلغ المروّجون له من قوّةٍ عقليّةٍ، لٰكنّ الإسلام يدحض حججهم، ويردّ على تساؤلاتهم وما يزيّنه الشيطان لهم.

حتّى انبثقت الحرب العالميّة الأولى لتضع أوزارها في بدايات العقد الثاني من القرن العشرين؛ لتبدأ معالم التغيير في لون الحياة بعد الانفتاح على الحضارة الغربيّة الجديدة، فدخلت تلك الحضارة ودخل معها الفكر الجديد بمتناقضاته من تبشيرٍ بالمسيحيّة من جهةٍ، إلى إلحادٍ وإنكارٍ للصانع من جهةٍ أخرى. وقد مثّلت الماركسيّة أهمّ أركان تلك الموجة الّتي طالت ركائز الدين، ومعالم الحقّ اليقين، فتصدّى له أعلام المسلمين من شيعة آل البيت عليهم السلام، ليرى النور كتاب (العمل وحقوق العامل) للمرحوم المحقّق الشيخ باقر شريف القرشيّ قدس سره، ثمّ (فلسفتنا)

(١) تحف العقول، ابن شعبة الحرّانيّ، ص ٤٠٥.

و(اقتصادنا) للمحقّق الكبير السيّد محمد باقر الصدر قدس سره، ثمّ تبعت تلك الأعمال التأسيسيّة جهودٌ كثيرةٌ في مناقشة تلك الأفكار الوافدة، حتّى إذا انكفأت تلك الأوهام على عقبها، وانثنى المؤمنون إلى دينهم عن بيّنةٍ، دخلنا في عصرنا الراهن مرحلة الاختبار الجديدة بموجة من التشكيك بمعالم الدين وأصول العقيدة، وتفاصيل التشريع، فراجت أسماء مثل برتراند رسل و تشارز دوكنز وعباس عبد النور وغيرهم، وهٰؤلاء ليسوا على منهجٍ واحدٍ، بل لكلٍّ منهجه في النقد، ويجمعهم التشكيك أو الإنكار لوجود الله ورفض النبوّة.

وقد يخال المتابع أنّ لهٰذه الأفكار نصيباً من الجدة العلميّة، أو الجدّيّة في التحقيق، لٰكنّها في روحها ترتكب أكبر تناقضٍ علميٍّ يمكن وأده بسهولة عند إمعان النظر، وإعطاء التفكير حقّه، ومن هنا ننطلق لمقاربة هٰذا اللون من التفكير، مؤيّدين ما ندّعيه بالنقل عن كبار العلماء المتخصّصين بالفكر الإسلاميّ، مثبتين بذٰلك أنّ الإسلام دين الحقّ والعلم والبحث الجادّ من أجل الحقيقة الّتي بيّنها الوحي، أو الأمناء عليه صلوات الله عليهم.

مدخلٌ
مختصرٌ حول نظريّة المعرفة

من المباحث المهمّة في الفكر الإنسانيّ بحثٌ عُرف باسم (نظريّة المعرفة)، ويعدّ الأساس في بيان مصادر المعرفة وقيمتها، وعليه ترتكز الرؤى العلميّة، سواءٌ كانت دينيّةً أم علميّةً، فمجال نظريّة المعرفة عامٌّ، يبيّن مرتكز الفكر البشريّ، وله أهمّيّةٌ كبرى في حلّ الكثير من الإشكالات الفكريّة، والإجابة عن تساؤلاتٍ تطرح هنا وهناك في مرافئ الفكر ومنابع المعرفة.

وقد كُتبت في هٰذا الموضوع كتبٌ كثيرةٌ، ومباحث متعدّدةٌ، وليس الغرض هنا أن نشرح الأفكار العلميّة الّتي جادت بها أقلام الباحثين في هٰذا المجال، فهو يحتاج إلى مساحةٍ أوسع، ولٰكن لا بدّ من إضمامة سريعةٍ لتوفير رؤيةٍ عامّةٍ في الموضوع، تاركين التوسّع للبحوث الخاصّة بهٰذه النظريّة المهمّة في تكوين الفكر.

(١)

أنكر بعض المفكّرين وجود العالم الخارجيّ، متشبّثين بأفكارٍ صيّرتها ضرورة العقل أوهاماً؛ لوضوح أنّ هناك عالماً خارج أذهاننا،

كما شكَكَ آخرون بإمكان إدراك ما هو خارج ذواتنا، وقال العقلاء من البشر إن هناك واقعاً خارجيّاً خارج أذهاننا، وإنّنا يمكننا التعرّف عليه من خلال القوّة العاقلة المودعة فينا، وعلى هٰذا بُني التفكير البشريّ، وتطوّرت العلوم، وقامت الأديان.

(٢)

تعريف العلم بالصورة الحاصلة من الشيء في العقل، أو بغيره، والالتواء في دلالة الالفاظ على معنى العلم؛ ممّا لا نحبّذه بعد وضوح حكاية هٰذا التعريف عن الشيء الواضح عند نوع الإنسان، من عمليّة الإدراك الّتي لا يخلو منها إنسانٌ في سائر أوقاته، وبها تقوم حياته، وتمتلك قيمتها من خلال ذٰلك الإدراك.

وقد قسّموا العلم إلى:

تصوّرٍ، وعرّفوه بأنّه: «الصور الحاصلة في الذهن دون الحكم عليها، كصورة: زيدٍ، والحائط، والكتاب، والسماء، والنار، والجنّ، والذرّة، والثقب الأسود و...».

وتصديقٍ، وعرّفوه بأنّه: الصورة الحاصلة في الذهن مع الحكم عليها إيجابا أو سلبا، كـ: النار حارّةٌ، السماء غائمةٌ، الحرّ شديدٌ، محمّدٌ رسول الله.

ولٰكن ما هو مصدر تلك التصوّرات والتصديقات؟

(٣)

الحسّ هو المصدر الأوّل للمعلومات الّتي تتكـوّن عنـد الإنسـان، ومن خلالـه ينتـزع الإنسـان الصـور الذهنيّـة للأشـياء الّتـي يـدركها بحواسّه الظاهرة (الباصرة واللامسـة والسـامعة والذائقـة والشـامّة)، ومن خلالها تتكوّن الصور الذهنيّة الأولى الّتي تكـون هـي رأس المـال للعلم عند الإنسان.

وهنا تتكوّن عنـد الإنسـان معـارف بدهيّـةٌ ضروريّـةٌ، إذ تضـطرّ النفس للإذعان بها من دون دليلٍ، مثل تصوّر الشمس أو الإنسـان أو الحجر، أو أنّ النار محرقةٌ، أو أنّ الكلّ أكبر من جزئه. وتتكـوّن كـذلك معارف أخرى نظريّةٌ، وهي الّتي «لا تـؤمن الـنفس بصـحّتها إلّا عـلى ضوء معارف ومعلوماتٍ سابقةٍ، فيتوقّف صدور الحكم منها في تلـك القضايا عـلى عمليّـة التفكـير، واسـتنباط الحقيقـة مـن حقـائق أسـبق وأوضح منها، كما في القضايا الآتية (الأرض كرويّةٌ) و(الحركة سـبب الحرارة)»[1].

وتعتمد المعرفة النظريّـة عـلى تلـك البـدهيّات الّتـي يستخلصـها الذهن وتكون هي رأس مال المعرفة وحجرها الأساس.

---

(١) فلسفتنا، محمدباقر الصدر، مؤسّسة دار الكتاب الإسلاميّ، ص ٦٣ و٦٤.

(٤)

عمليّة التفكير هي: «العمليّة الّتي تُستنبط بها معرفةٌ نظريّةٌ من معارف سابقةٍ.. فالتفكير جهدٌ يبذله العقل في سبيل اكتساب تصديقٍ وعلمٍ جديدٍ من معارفه السابقة»[١].

ولمّا كانت عمليّة التفكير هٰذه ترتكز على المعلومات المسبقة الراجعة إلى البدهيّات؛ فلا بدّ من التثبّت والفحص بعنايةٍ في تلك المعلومات للتوصّل إلى النتائج الصحيحة.

(٥)

والعقل هو القوّة المودعة في الإنسان، وهو الأداة الأساسيّة في عمليّة التفكير فطرةً من الله تعالى، وهو كما يستطيع الحصول على المعلومة من الخارج بانعكاس الصور فيه وحفظها في الذاكرة، فكذٰلك «له القدرة على قياس المعلومات بعضها ببعضٍ، وملاحظة النسبة بينها، كالعليّة والمعلوليّة، والأسبقيّة، والظرفيّة والزمانيّة والمكانيّة، والابتداء والانتهاء والاستعلاء، ونحوها»[٢].

وهٰذه القوّة الإدراكيّة «مشتركةٌ بين أفراد النوع الإنسانيّ، ولا تختصّ بصنفٍ دون صنفٍ، وإنّهم متساوون فيها بالشكل الّذي هي

(١) فلسفتنا، ص ٦٤.

(٢) بحوثٌ في الفكر والعقيدة، عزّ الدين الحكيم، ص ٩٥.

عليه عندهم، فلا يمكن أن ندّعي أنّ أمراً ما يمكن إدراكه عند شخصٍ أو صنفٍ من البشر لا يمكن إدراكه عند آخر»[١].

(٦)

وكما قدّمنا فإنّ العقل - وهو القدرة على الفهم والإدراك - له منابع لتحصيل المعلومة، ومنها التجربة، فإنّ التجربة قد توفّر للإنسان مادّةً علميّةً مبرهنةً، لٰكنّها تظلّ خاضعةً لحدودها، فالتجربة ظرفها محصورٌ بالمادّة وشؤونها، ومن هنا فلا يمكن حصر المعرفة بالتجربة فقط، وقد ذُكرت أدلّةٌ متعدّدةٌ لذٰلك، منها: «أنّ الفكر لو كان محبوساً في حدود التجربة، ولم يكن يملك المعارف مستقلّةً عنها، لما أتيح له أن يحكم باستحالة شيءٍ من الأشياء مطلقاً؛ لأنّ الاستحالة - بمعنى عدم إمكان وجود الشيء - ليس في نطاق التجربة، ولا يمكن للتجربة أن تكشف عنه»[٢].

ومن هنا فهناك آفاقٌ أخرى للعقل للتعرّف على المجهول ومنها (النصّ الدينيّ).

(٧)

يمثّل النصّ الدينيّ منهلاً من مناهل المعرفة في مقام التعرّف على ما

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٦.

(٢) فلسفتنا ص ٦٩.

خفي عنّا من تاريخٍ سابقٍ، أو غيبٍ لاحقٍ، وتستند أهمّيّة النصّ الدينيّ على حكاية الصادق المعصوم عن ما غاب عنّا، فبعد ثبوت العصمة لا بدّ من الالتزام بما يؤدّيه المعصوم؛ امتثالاً للعقل؛ إذ يكون التعدّي عن تلك المعرفة تعدّياً على العقل، وخروجاً على مقاييسه، وليس ذٰلك إلغاءً للعقل، بل إنّه التزامٌ بالعقل ومتابعةٌ له.

(٨)

معطيات العلم الحديث هي معطياتٌ ظنّيّةٌ في كثيرٍ من تفاصيلها؛ فلا يصحّ علميّاً التعصّب لها، أو رفض ما ثبت بالدليل صدقه لمجرّد منافاته في الظاهر لنظريّةٍ علميّةٍ، وإن لم تصل إلى حدّ اليقين بها.

وأخيراً..

هٰذا موجزٌ في مفاصل مهمّةٍ تعنينا في بحثنا هنا، نقدّمها لتكون فكرةً عامّةً عند القارئ الكريم، ولتفصيل تلك الأبحاث راجع نظريّة المعرفة في الكتب المهيّأة لها.

الفصل الأوّل
في مسائل ثلاثٍ

المسألة الأولى: منشأ الدين

هناك حقيقةٌ تاريخيّةٌ لا يمكن إنكارها، وهي أنّ الإنسان توجّه إلى التديّن بدينٍ ما منذ بدايات التاريخ المعلومة عندنا، فلا نكاد نجد تجمّعاً بشريّاً إلّا ووجدنا معه (فكراً دينيّاً) و(طقوساً دينيّةً)، وهنا يرجع المؤمنون بهٰذه الفكر إلى أصلين: أحدهما نفسيٌّ، فالإنسان مخلوقٌ له حسٌّ دينيٌّ موجودٌ ضمن تركيبته **النفسيّة**، وهو ما نسميه (الشعور الدينيّ)؛ والآخر يرتبط بالرسالات السماويّة، فإنّ أوّل البشر هو آدم عليه السلام وهو نبيٌّ، والأديان الأخرى إمّا استمرارٌ لنهج السماء، أو انحرافٌ عنه، وكلّ ذٰلك جاء ملبّياً لتلك الحاجة النفسيّة الّتي تنطلق من الشعور بالضعف.

ولٰكن هناك وجهة نظرٍ أخرى تقول: إنّ الإنسان انطلق من احتياجاتٍ معيّنةٍ ليحدّد طريقاً سمّي دينًا، فالشعور بالضعف والخوف

أمام الظواهر الطبيعيّة، جعل الإنسان يتصوّر وجود قوّةٍ خفيّةٍ تريد منه الخضوع لها، فتولّد مفهوم العبادة.

والاستغلال من قبل أصحاب النفوذ أيضاً عاملٌ لتخدير المرؤوسين وسلب حقوقهم باسم (إلٰهٍ) قويٍّ، مسيطرٍ، خفيٍّ.

وبين هٰؤلاء وهٰؤلاء نشأت طبقة رجال الدين الّذين استفادوا من مواقعهم الموهومة للثراء والرئاسة.

ولا ننكر أنّ بعض هٰؤلاء قد يكونون مصلحين لمجتمعهم، مطوّرين لواقع أممهم.

ولٰكن لا نجد مسوّغاً للإبقاء على سلبيّات الفكر الدينيّ وتناقضاته لتسيطر على عقولنا، **خصوصاً** بعد اجتياح العالم بسيلٍ هائلٍ من الأفكار والنظريّات الّتي بيّنت أسرار الكون، وأسباب ما كان الناس يظنّونه غضباً من الآلهة، فلا نخاف اليوم ما عرفنا أسبابه، وكذا لا ينبغي لنا - ونحن نعيش عصر العلم والحرّيّة - أن نكون ألعوبةً لطبقاتٍ تلغي عقولنا بواسطة الأوهام لتستغلّ طاقاتنا وثراوات بلادنا.

وباختصار: لا وجود اليوم لمسوّغات الالتزام بالدين، وما يفرضه من أفكارٍ وممارساتٍ.

أقول: هنا لنتوقّف قليلاً ونتأمل.. عندما نرجع إلى أنفسنا هل

نشعر – ولو في وقتٍ ما – بالضعف الداخليّ أمام المجهول؟ هل لا زال هناك حقّاً ما هو مجهولٌ؟

لا شكّ أنّ العلم – رغم إنجازاته الهائلة – ما زال متوقّفاً في فهم الكثير **من الأمور**، ولٰكن يمكن أن نسمع جواباً يقول: إذن لنترك المجال للعلم ليكتشف غداً ما يجهله اليوم، كما اكتشف اليوم ما كان يجهله بالأمس.

وهنا يقول المؤمنون بالدين: إنّ الخطأ في هٰذه الفكرة هو في تحديد المنشأ الصحيح للدين.

المنشأ الصحيح للدين

فإنّنا نقول: إن للدين مَنشئين: الأوّل تبليغ الأنبياء عليهم السلام، والآخر أديانٌ انحرفت عن قيم السماء لتوجد بديلاً يشبع حاجات الإنسان من جهةٍ، وليحقّق المتسلّطون من خلاله أهدافهم في استغلال الناس من جهةٍ أخرى، فما ذكره الرأي الآخر هو – في الحقيقة – جزءٌ من الواقع، ولم يرسم لوحة الواقع كاملةً ليصل إلى نتيجةٍ صحيحةٍ.

ومن هنا فالدافع لنا للبحث في الدين والتعرّف على الحقّ فيه هو تلك البلاغات الّتي جاء بها أناسٌ عرفوا بالأنبياء والأوصياء، وقد قالوا إنّ هناك وراء عالمنا المنظور إلٰهاً هو الموجد لهٰذا الكون، وله تشريعٌ

وأحكامٌ واعتقاداتٌ يريدها منا؛ فلا مجال للعاقل إلّا أن ينظر في دعـاواهم ليرى هل هي حقٌّ يجب اتّباعه، أو هي خيالاتٌ لا تلزمنا بشيءٍ.

وللمنكر أن يقول - بل قالوا وأكثروا - إنّنـا نظرنـا في الـدين ولم نقتنع، وهٰذا الكتاب محاولةٌ للبيان والبحث حول بعض ما لم يقتنـع بـه أولٰئك الناس، لنرى هل أن تساؤلاتهم في محلّها، وهل أنّهـا تسـاؤلاتٌ معرفيّةٌ تحرج الدين حقّاً؟ أو أنّها أوهامٌ لا تطال من قدس الحقيقة شيئاً، وتجعل أولياءها أولى بالحرج؟!

الجهل منشأ الدين

يقول بعض المنكرين لوجود الله عزّ وجـلّ: «فـيما مـضى وجـدت فكرة الآلهة لكي يستعان بها على تفسير كلّ أشكال الظواهر الفيزيائيّة، كالريح والمطر وحركة الكواكب. وحين تقدّم العلم تبـيّن أنّ العوامـل فوق الطبيعة (الخارقة) هي افتراضاتٌ زائدةٌ لتفسير الحوادث الطبيعيّة، فلماذا إذن يلحّون على الاستشهاد بآلهةٍ لتفسير الانفجار العظيم؟!»[1].

ويقول: «إنّ العلم لم يفسّر كلّ شيءٍ، ولٰكنّ هٰذا لا يعني أنّـه غـير قادرٍ على ذٰلك، ولٰكنّ الربوبيّين يتحيّنون الفرص دائماً للتمسّـك بكـلّ

(١) الله والعقل والكون، بول ديفز - ترجمة الدكتور سعد الدين خرفان ووائل بشير الأناسي، منشورات دار علاء الدين، سوريّا - دمشق، الطبعة السادسة، ٢٠٠٨، ص ٥٩.

قضيّةٍ لا يستطيع العلم تفسيرها في ذٰلك الزمن، ويـدّعون أن إلٰههـم لا يزال ضروريّاً لتفسيرها. على أنّ إلٰههم أخذ شأنه يضمحلّ بعد ذٰلك مع تقدّم العلم»[1].

ونقول: ليس المنشأ للاعتقاد بوجود الإلٰه هو ذٰلـك الجـزيء غـير المفهوم من نظام الطبيعة والكون، لتقف العقول حـائرةً أمـام جـدوى الاعتقاد بوجود إلٰهٍ مع توصّـل العلـم إلى أسـباب الظـواهر الطبيعيّـة وقوانين العالم، لا ليس ذٰلك الجهل هو منشأ الاعتقاد بوجود إلٰهٍ.

لٰكن عندما ننظر إلى ما حولنا ونجده محـدّداً بحـدودٍ لا يمكنـه أن يتعدّاها، والقوانين الحاكمة للعالم كلّه هي إنّما تجري وفق حدودٍ معيّنةٍ، ومهما توصّل العلم فهو إنّما يفهم نظاماً موضوعاً، ولا يؤسّـس لـشيءٍ جديدٍ، فالعلم الحديث - بكلمةٍ يسيرةٍ - هو فـنّ اكتشـاف القـوانين، وسؤال العقل الدينيّ هو: من وضع تلك القوانين المعقّدة المتكاملة فيما بينها لتصوغ لنا عالمًا بكلّ هٰذا الإتقان والتناسق؟!

هنا لا مجال لكلّ نظريّات العلم أن تجيب؛ لأنّه - ببساطةٍ - خارج نطاق تخصّصها، والجواب الصحيح، هو: أنّ موجد تلـك الموجـودات المحكومة بتلك الحدود المعيّنة والقوانين المعقّـدة شيءٌ لا تحكمـه تلـك الحدود والقوانين، عالمٌ قادرٌ هو الله عزّ وجلّ.

---

(١) المصدر السابق، ص ٦٠.

ولا ينبغي لنا أن نغفل دور الأنبياء وحجج الله – تعالى – الّذين جعلهم الدعاة إليه؛ فقد بلّغوا البشر بوجود إلٰهٍ عالمٍ قادرٍ ذي شرعةٍ ومنهاجٍ، وأنّ الناس في الدنيا في مرحلة اختبارٍ، وبعدها حياةٌ أخرى؛ فيجب على العاقل التوقّف عند دعواهم، والتأمّل المنصف في أدلّتهم؛ فإنّهم عليهم السلام ما ألقوا الأمور على عواهنها، ولا طلبوا من الناس إيماناً أعمى، بل أقاموا الأدلّة، وأوضحوا الطريق؛ فلا بدّ من التوقّف والتأمّل في أدلّتهم.

أهمّيّة الدين

ينطلق الإنسان في سلوكيّاته من خلال رؤىً معيّنةٍ، ومجموعة هٰذه الرؤى والقناعات تتأثّر برؤية الإنسان للحياة والإنسان والمبدأ والمصير. ومن هٰذا المنطلق نجد أنّ تأثير العقيدة في الإنسان أخذ أبعاداً سلوكيّةً لا يمكنه الخروج عنها بشكلٍ مطلقٍ.

وهنا سؤلان:

الأوّل: لماذا نجد مسلمين وهم غير صالحين؟

الثاني: لماذا نجد ملحدين على مستوىً خلقيٍّ رفيعٍ؟

والجواب: ليس الإسلام هو المسؤول عن عدم صلاح هٰؤلاء، كما أنّ الإلحاد ليس دافعاً للملحد ليكون خلوقاً، بل إنّ ابتعاد المسلم عن

التعاليم الصحيحة للإسلام هو الّذي يجعله بتلك المثابة من التهرّئ الأخلاقيّ، ومع ذٰلك لا يصل إلى حدود الإجرام أو الانفلات الأخلاقيّ، بل تظلّ فيه جذوة من خلقٍ ما دام على الإسلام؛ لذا نجد تأنيب الضمير يرجع بالإنسان المسلم إلى دينه الآمر له بحسن الخلق مهما ابتعد عنه.

أمّا من أنكر وجود الخالق والمعاد والتكليف، فلا يعني له الشأن الخلقيّ إلّا أمراً تكميليّاً إن شاء فعله من منطلق الإنسانية كما يدّعون، وإن شاء تركه لعدم الرقيب الحسيب.

وها نحن نعيش عصر الحرّيّة - كما يقولون - والدعوة إلى تحرير بلاد الشرق الإسلاميّ، وبثّ النظم الديموقراطيّة الغربيّة فيها، لتنعم شعوبنا بالحياة السعيدة كما يدّعون، ولٰكن نجد أمرين ينبغي الالتفات إليهما:

الأوّل: أنّ هٰذه الدول (المتحضّرة) خدعت شعوبنا، وأحرقت بلادنا لا لشيء سوى طمعهم في ثروات هٰذه البلاد من جهةٍ، ومحاولتهم حماية بلادهم ولو على حساب الملايين من الشرقيّين المسلمين وغير المسلمين، الّذين تطحنهم الحروب في العراق وسوريّا واليمن وليبا وأفغانستان وباكستان.

الثاني: أنّ التطوّر في بلاد الغرب ليس وليداً لرفض الدين، ولا

تخلّف بلادنا وليدٌ للتمسّك بالدين، وعلينا أن ننظر في التاريخ قليلاً لنجد أنّ المسلمين في عصر ازدهار الدولة الإسلامية كانوا روّاد العلم، الّذين طفروا بالفكر والعلوم في شتّى مجالاتها طفراتٍ كبيرةً أغرت الغربيّين أنفسهم لتحصيل علوم الأمّة الإسلاميّة بلغتها الأمّ، وأعني اللغة العربيّة، فكان المسلمون أهل العلم والحضارة في تلك الحقب.

نعم، إنّ العمل الجادّ المكثّف على تجهيل أمّتنا، ومحاولة سلب ثقتها بنفسها، وإغراقها في التخلّف والفقر، وسلب الثقة بالدين؛ هو الهدف من حملات المتحاملين على الدين، ولا أعني أنّه السبب الوحيد، بل هو أحد الأسباب المهمّة الّتي ينبغي الالتفات إليها، والعمل لردم الهوّة بين التقدّم الغربيّ والتخلّف الشرقيّ دون المساس بحقائق الدين، وهٰذا هو الحلّ لما نحن فيه من تراجعٍ حضاريٍّ، وليس الأمر مرتبطاً بترك الدين.

المسالة الثانية: نشأة الكون

نظرة الدين لوجود الكون هي نظريّة (الخلق)، فإله المؤمنين أوجد هٰذا العالم في ستّة أيّام، فقد جاء في القرآن: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾[١]، و﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾[٢]، و﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[٣]، وغيرها من الآيات. فإلٰه المؤمنين يقول إنّه أوجد السماوات والأرض في ستّة أيّامٍ.

ولٰكن للعلم الحديث رأيٌ آخر، فالكون هو نتيجة انفجارٍ مضت عليه بلايين السنين (١٢ – ١٨) بليون سنةٍ[٤]، وتطوّر ليكون على ما نراه اليوم، تطوّر خلال فتراتٍ طويلةٍ، مهما شكّكنا في تحديدها فهي ليست ستّة أيّامٍ.

من هنا يقول منكرو (الخلق) إنّه لا مجال لتلك النظريّات (الدينيّة) الّتي كانت تناسب طبيعة مجتمعاتٍ جاهلةٍ؛ لما نمتلكه اليوم من

---

(١) سورة الأعراف: ٥٤؛ سورة يونس: ٣.

(٢) سورة الفرقان: ٥٩.

(٣) سورة السجدة: ٤.

(٤) منظومتنا الشمسيّة وموضعها من الكون.. المصير.. أو الصدفة، ستيورات روس تايلور، ترجمة: عاطف يوسف محمود، المركز القوميّ للترجمة، الطبعة الأولى، مصر – القاهرة، ص ٧٣.

معلوماتٍ، وبعدما عرفنا يقيناً نشأة الكون، وتمّ تحديد مـدّةٍ ومراحـل لتطوّره، فلا ستّة أيّامٍ، ولا شيء إلّا العلم.

فالعلم اليوم يقول: «المفروض في العالم أنّه كان في لحظة الانفجـار الأعظم ذا حجمٍ معدومٍ، وبالتالي ذا درجة حرارةٍ لا نهائيّة الكبر، لٰكنّ شروعه في التوسّع واستمراره فيه يؤدّيان إلى تناقص سخونة الإشعاع، ومن المظنون أنّ درجة الحرارة قد هبطت في نهاية الثانية الزمنيّة الأولى بعد الانفجار الأعظم إلى حوالي عشرة آلاف مليون درجـةٍ، أي قرابـة ألف مرّةٍ من درجة حرارة مركز الشمس»[١].

«وبعد مئة ثانيةٍ تقريباً من الانفجار الأعظم هبطـت السـخونة إلى مليار درجةٍ، وهي حرارة قلب أسخن النجوم»[٢].

«وفي أثناء آلاف السنين الّتي تلت، اسـتمرّ العـالم في التوسّـع دون أن يحدث فيه شيءٌ، وفي النهاية، وبمجرّد أن هبطت درجة الحرارة إلى بضـعة آلافٍ، وفقدت الإلكترونات والنوى من الطاقة ما يكفيها للصـمود أمـام التجـاذب الكهرومغناطيـسيّ فـيما بينهـا، بـدأت بالتجـاذب والتراكـب، فشكّلت الذرّات، وبقي الكون كلّه مستمرّاً في التوسّع والتبرّد»[٣].

---

(١) موجز تاريخ الزمن، ستيفن هوكنغ، ترجمة أدهم السمان، دار طلّاس للدراسات والنشر، ص ١٢٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٢٤.

أقول: وهنا لا بدّ من التعرّف على الفكرة الإسلاميّة لنكوّن فكرنا على أساسٍ علميٍّ واضحٍ، فنقبل أو نرفض عن علمٍ ووعيٍ.

في هٰذه المسألة سؤالان على جانبٍ كبيرٍ من الأهمّيّة:

السؤال الأوّل: هل وجد العالم بعد العدم؟

السؤال الثاني: هل يتلاءم التفسير الإسلاميّ لوجود العالم مع العلم أو يناقضه؟

وقفةٌ مع السؤال الأوّل:

ذهب الكثير من العلماء إلى قدم العالم[1]، وأنّه ليس له بدايةٌ، ولٰكن تهاوت هٰذه الفكرة بعد تحديد العلم الحديث لعمر الكون بما يقارب الـ ١٤ مليار سنةٍ.

إنّ تحديد عمر الكون يعني أنّ له بدايةً، وأنّه لم يكن موجوداً قبلها، وهٰذا واضحٌ جدّاً، وإلّا لا يمكن افتراض البداية لما لم يكن معدوماً ثمّ

(١) كانت الأديان السماويّة سبّاقةً إلى القول بحدوث العالم، بمعنى أنّ للعالم بدايةً لم يكن موجوداً قبلها، وهٰذا بالضبط ما أفادته أبحاث الفيزياء الحديثة، ولٰكن لم نر الباحثين في الشأن الدينيّ، الناقدين لمعطياته، يهتمّون بهٰذا السبق وهٰذه الحقيقة، مع أنّ الفكرة السائدة في زمن النصّ الدينيّ - بدءاً من الديانة اليهوديّة مروراً النصرانية وانتهاءً بالإسلام - كانت تصرّ على قدم العالم، ويصرّ أتباع الديانات الثلاث على حدوثه، وانتصرت الفكرة الدينيّة بما وافقها من العلم الحديث، والفيزياء الحديثة شاهدٌ وبرهانٌ.

وجد، لتكون لحظة وجوده نقطة الانطلاق لحساب عمره.

وهٰذه الفكرة مهما بدت واضحةً فإنّها تمتلك أهمّيّةً كبيرةً في الفكر الدينيّ، ويؤيّدها العلم الحديث.

والسؤال عن من أوجد الكون يكون صحيحاً بل ضروريّاً، ومنه ينطلق المؤمنون في الإجابة بأنّ الإلٰه هو الموجد للكون، من خلال معطيات فكرة (لكلّ حادثٍ علّةٌ)، وسيأتي الكلام في ذٰلك.

وقفةٌ مع السؤال الثاني:

لا بدّ لنا أن نتوقّف عند مفهوم (اليوم) و(الزمن).

فالزمن هو تحديدٌ افتراضيٌّ من خلال ملاحظة حركاتٍ فلكيّةٍ اهتمّ بها الإنسان لضبط شؤون حياته من سالف الزمان، ومن تلك الحركة الفلكيّة من دوران الأرض حول نفسها يتكوّن لدينا (اليوم)، ومن حركة الأرض حول الشمس تتكوّن لدينا (السنة)؛ ومن هنا نسأل ونقول: كيف نحدّد اليوم والسنة قبل خلق الأرض؟

لنر القرآن هل استعمل (اليوم) في معنىً غير الّذي نعرفه؟

١ - ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1].

---

(١) سورة الحجّ: ٤٧.

٢ – ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[١].

٣ـ عن حفص بن غياثٍ قال: قال أبو عبد الله: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربّه شيئاً إلّا أعطاه، فلييأس من الناس كلّهم، ولا يكون له رجاءٌ إلّا من عند الله عزّ ذكره، فإذا علم الله – عزّ وجلّ – ذٰلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلّا أعطاه، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها؛ فإنّ للقيامة خمسين موقفاً، كلّ موقفٍ مقداره ألف سنةٍ». ثمّ تلا: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[٢].

إذن هناك استعمالٌ لليوم في معنىً آخر في القرآن، فلا يمكننا محاسبة الآيات القرآنيّة بنحوٍ واحدٍ من الفهم وفق ما ألفناه من مفاهيم.

فخلق السماوات والأرض كان في مدّةٍ زمنيّةٍ سمّاها القرآن باليوم، وليس اليوم بالضرورة هو ما نفهمه لأوّل وهلةٍ من هٰذا اللفظ، بل يمكن أن يكون آلاف السنين، فلا يعارض ما توصّل إليه العلم الحديث.

---

(١) سورة السجدة: ٥.

(٢) الكافي، الشيخ الكلينيّ، ج ٨، ص ١٤٣.

تذكيرٌ:

ليست النظريّات العلميّة المطروحة معلوماتٍ يقينيّةً قطعيّةً لا يمكن الشكّ فيها، بل هي فرضيّاتٌ فسّر العلماء من خلالها أموراً معيّنةً، وعالم الاكتشافات ما زال سائراً باتّجاه الكثير من الإضافات الّتي كانت وما زالت تعدّل تلك الفرضيّات، أو تلغيها لصالح فرضياتٍ أخرى، فليس من المنطقيّ أبداً أن نقطع بمفردةٍ علميّةٍ ما زالت عجلة التغيير تدور حولها، وربّما سحقتها!

ومن هنا فكلّ ما نستعرضه من موافقة النصّ الدينيّ لمعطيات هٰذه الفرضيّات هي من باب احتمال الموافقة.

ومن المناسب هنا أن نذكر ما ذكره كاتبٌ كبيرٌ هو (ستيفن هوكنغ) في كتابه المعروف (موجز تاريخ الزمن): «لا شكّ أنّ أكثريّتنا ترى كثيراً من السخف في فكرة أنّ عالمنا يشبه برجاً من السلاحف تقف بعضاً فوق بعضٍ دون نهايةٍ، ولٰكن لماذا كان ما نعرفه عن هٰذا الأمر خيراً من ذاك؟ من أين جاء العالم وإلى أين يسير؟ هل له بدءٌ؟ وإذا كان له بدءٌ فماذا كان يوجد قبل هٰذا البدء؟ إنّ لدينا في الفيزياء من الاكتشافات الحديثة المهمّة ـ بفضل التقنيّات الرائعة الجيّدة الّتي أتاحت بعضا منها ـ ما يوحي بأجوبةٍ عن بعض هٰذه الأسئلة الأساسيّة. وقد تغدو هٰذه الأجوبة ذات يومٍ واضحةً وضوح دوران الأرض حول الشمس، أو

ربّما سخيفةً كفكرة برج السلاحف. والزمن وحده - مهما حدث - كفيلٌ بكلمة الفصل»[١].

سبب وجود العالم.. الصانع الحكيم أم العدم؟

من الّذي أوجد العالم؟ حوارٌ طويلٌ.. لئن استراحت الفلسفة إلى القول بقدم العالم الّذي يعني بدوره استغناءه عن العلّة الموجدة له، فقد أحرج العلم الحديث القائلين بعدم وجود إلٰهٍ خالقٍ للكون، خصوصاً بعد الاكتشافات العلميّة الكبيرة الّتي أمكن من خلالها تحديد عمر الكون بما يقارب الأربعة عشر مليار سنةٍ، أو أقلّ أو أكثر من ذٰلك؛ لضرورة أنّ العقل يدرك أنّ لكلّ موجودٍ حادثٍ بعد العدم علّةً.

وهنا نتوقّف عند عدّة فرضيّاتٍ في موجد العالم:

الفرضيّة الأولى: أنّ العالم أوجد نفسه.

الفرضية الثانية: أنّ العالم أوجده العدم.

الفرضية الثالثة: أنّ العالم أوجده غيره.

مناقشة الفرضيّة الأولى:

ويمكن مناقشة الفرضيّة الأولى بما يأتي:

إنّ الشيء لا يمكنه إيجاد نفسه، وبالتعبير الفلسفيّ (إيجاد الشيء

(١) موجز تاريخ الزمن، ستيفن هوكنغ، ص ١٥.

لنفسه ممتنعٌ)؛ لأنّه عندما يريد ايجاد نفسه فهل هو موجودٌ أو معدومٌ؟

إن كان موجوداً، فلا يمكن إيجاده؛ لأنّه تحصيلٌ للحاصل الموجود، وهٰذا غير ممكنٍ، وإن لم يكن موجوداً امتنع تأثيره؛ لأنّ العدم لا يؤثّر ولا يمنح الوجود.

مناقشة الفرضيّة الثانية:

إنّ العلّة إمّا موجبةٌ وإمّا مختارةٌ، وموجد العالم لا بدّ أن يكون من نوع العلّة المختارة، وهنا لا بدّ من بيان الفرق بينهما ليتّضح المراد.

العلّة الموجبة: هي الّتي يصدر عنها معلولها دون علمها به، ودون إرادةٍ منها واختيارٍ؛ لذٰلك فالمعلول لا ينفكّ عنها، فحيثما وجدت العلّة وجد معلولها.

والعلّة المختارة: هي الّتي يصدر عنها معلولها مع علمها به وإرادتها له واختيارها لحصوله؛ لـذٰلك يمكن أن تنفكّ العلّة عن معلولها في الوجود.

ولمّا كانت للكون بدايةٌ - حسب معطيات العقل والعلم والدين - فليس موجد العالم علّةً موجبةً، وإلّا لكان العالم موجوداً قديماً أزليّاً لا أوّل له، ولا بداية.

والنتيجة: أنّ موجد العالم فاعلٌ مختارٌ، وليست هٰذه الصفات من

شؤون العدم، فالعدم المطلق بطلانٌ محضٌ لا يوصف بهٰذه الأوصاف الوجوديّة مطلقاً.

الفرضيّة الثالثة: وهي المتعيّنة لبطلان الفرضيّتين السابقتين، قال الله عزّ وجلّ: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[1].

(١) سورة الطور: ٣٥.

المسألة الثالثة: نشأة الإنسان

يقول الدين: إن الله - عزّ وجلّ - خلق الإنسان الأوّل من طينٍ، فالإنسان الأوّل مخلوقٌ مباشرةً من قبل الله تعالى، وقد خلقه من طينٍ.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۞ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ۞ فَسَجَدَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۞ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۞ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ۞ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[1].

﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَـٰنِ مِن طِينٍ ﴾[2].

ويقول العلم الحديث وفق نظريّة تشارلز داروين[3] إنّ الإنسان وجد على هٰذه الارض وفق سلسلةٍ من التطوّرات الّتي مرّت بها الخليّة لتكون حيواناً آخر أكثر تعقيداً، وهٰكذا يستمرّ التطوّر - وفق طفراتٍ معيّنةٍ - ليوجد الإنسان.

---

(١) سورة الحجر: من ٢٦ - ٣٣.

(٢) سورة السجدة: ٧.

(٣) نظريّة داروين الّتي طرحها تشارلز داروين في كتابه (أصل الأنواع) تابعه عليها الكثير من العلماء وطوّروها؛ لتصل إلى نتائج كبيرةٍ في مجال نشأة الكائنات الحيّة ومنها الإنسان.

ونقول: عندنا هنا أمران لا بدّ من التوقّف عندهما:

الأمر الأوّل: هل أنّ نظريّة التطوّر الداروينيّة – حتّى مع التعديلات الّتي طرأت عليها – نظريّةٌ ثابتةٌ قطعيّةٌ؟

من الواضح – بأدنى متابعةٍ – أنّ هناك نقطتين ينبغي ملاحظتهما:

الأولى: أن هٰذه النظريّة لم تثبت بشكلٍ قاطعٍ، وهي مجرّد افتراضٍ، والدليل ما تبعها من تعديلاتٍ وإضافاتٍ، فإنّ من الباحثين من أضاف إليها تعديلاتٍ بعد أن أربكت الاكتشافات الجديدة أصل النظريّة.

الثانية: أنّها محاطةٌ بهالةٍ من الاحترام لا ينبغي أن تحاط بها الفرضيّات العلميّة مهما امتلكت من رصيدٍ افتراضيٍّ، ما دامت لم تصل حدّ القطع بمضمونها.

فما يذكره المتحمّسون للنظريّة الداروينيّة من "إجماعٍ" حولها لا يفي بالغرض لإفادة أنّها واقعٌ يقينيٌّ؛ وذٰلك:

١ـ لعدم تحقق ذٰلك الإجماع في نفسه، بعد وجود علماء لهم وزنهم معارضون لها مهما قلّوا.

٢ـ لأن الإجماع في المسائل العلميّة ليس دليلاً ليتحقّق به بيان الواقع والكشف عنه، وكم أجمع العلماء – أو قاربوا الإجماع – على فرضيّاتٍ صيّرها البحث العلميّ أصداء تاريخيّةً لا وجود لها اليوم إلّا

في بطون كتب التاريخ العلميّ، مثل القول بقدم العالم، أو أن الأرض مسطّحةٌ مثلاً.

الأمر الثاني: لماذا توقّفت مسيرة التطوّر، فإنّنا إلى الآن لم نر كائناً حيّاً تحوّل إلى آخر، ولو من خلال تعاقب الأجيال، وما يجري من تحوّلاتٍ يتمّ بواسطة تدخل الإنسان، ومثاله الواضح هو عمليّة التركيب النباتيّة، أو التكيّف الحيوانيّ عندما تتغيّر الظروف المحيطة بالحيوان، فيتكيّف لها بما لا يخرجه عن النوع الّذي ينتمي إليه كما في الرواشح وغيرها.

فالتطوّر يتمّ بأشكالٍ مختلفةٍ منها:

١ـ تطوّر النبات أو الحيوان بالتزاوج بين أنواعٍ مختلفةٍ، فيزاوج البرتقال مع الليمون لينتج فاكهةً جديدةً، أو يزواج الحمار بأنثى الحصان لينتج بغلاً، لٰكنّه لا ينتج نوعاً جديداً قادراً على التزاوج والبقاء.

٢ـ تطوّر (تكيّف) الكائن الحيّ مع المحيط للحفاظ على النوع كما في الرواشح، فإنّها تتمكّن بواسطة تغيّرٍ جينيٍّ طارئٍ عليها من إنتاج نوعٍ مقاومٍ للمضادّات المستعملة ضدّها.

وفي كلا الحالتين لا يحصل تطوّرٌ يخرج بالجيل الجديد عن الدائرة الّتي يتطوّر خلالها، فناتج تركيب البرتقال مع الليمون لونٌ آخر من

الحمضيّات، كما أنّ البغل هو ضمن إطار أبويه، فلا نوع جديدٌ يصحّح الانتقال من خليّةٍ أحاديّةٍ إلى تركيبٍ غايةٍ في التعقيد كما هو في الإنسان.

ومن هنا نصل إلى قبول النتيجة الّتي تقول إنّ خلق آدم كان مباشرةً من قبل الله تعالى، وهٰذه حقيقةٌ دينيّةٌ لا نشكّ فيها ولا يمكن تعديلها، والفرضيّات العلميّة مهما بدت قويّةً وناضجةً، وتبعها كمٌّ كبيرٌ من العلماء، فهي سرعان ما تخضع للتبديل والتطوير.

وقد تعرّضت نظريّة التطوّر لتحدٍّ صعبٍ بعد الانفجار الكامبريّ الّذي تحدّى أهم أسس النظريّة.

تصريحٌ مهمٌّ:

الدكتور ستيفن ماير: «رغم التأثير الواسع للبرامج الدراسيّة ووسائل الإعلام الشائعة والمتحدّثين باسم المؤسّسة العلميّة على إيصال الفكرة المخالفة، إلّا أنّ عقيدة النظريّة الداروينيّة الحديثة في التطوّر البايلوجيّ قد بلغت طريقاً مسدوداً وخطيراً تماماً...»[1].

«هل تستطيع آليّة الداروينيّة الجديدة تفسير الزيادة المثيرة في المعلومات الوراثيّة الّتي ظهرت في الانفجار الكامبري؟»[2].

---

(١) شكّ داروين، د ستيفن ماير، ترجمة الدكتور موسى إدريس والدكتور مؤمن الحسن وآخرون، دار الكتاب للنشر والتوزيع، مصر – الإسماعيليّة، ص ٢١.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٣.

أمّا ما أفادته الحفريّات من وجود هياكل بشريّةٍ أقلّ تطوّراً من الإنسان المعاصر، فهي لا تعني بالضرورة أنّها مرحلةٌ من مراحل التطوّر، بل هي لأجيالٍ غيرنا، فقد ورد في النصّ الدينيّ أنّ قبل خلق البشر المعاصر كان هناك خلقٌ غيرنا[1]، وقد انقرضوا.

(١) وهم النسناس، انظر: علل الشرائع، ج ١، ص ١٠٥؛ الجواهر السنيّة للحرّ العامليّ ص ٣١٨؛ تفسير العيّاشيّ، ج ١، ص ٢٧.

الفصل الثاني
العقيدة الإسلاميّة بين الرفض والقبول

وجود الخالق

الدليل على وجود الخالق

يقول المؤمنون إنّ هناك إلٰهاً واحداً، ليس كمثله شيءٌ، وهو عالمٌ، قادرٌ، حيٌّ، سميعٌ، بصيرٌ.

ويقول الآخرون: لا وجود لهٰذا الإلٰه؛ إذ لا دليل على وجوده.

وهنا لا بدّ من التعرّف على الدليل على وجود الإلٰه وفق معايير العلم.

أقيمت على وجود الله – تعالى – أدلّة متعدّدةٌ منها: ما يُعرف بـ (دليل الحدوث) و(دليل النظام) و(دليل الإعجاز) و(دليل الاحتمال).

الدليل الأوّل: دليل الحدوث

عندما ننظر الى الأشياء حولنا نجدها محدّدةً بحدودٍ، يمكن تقسيمها إلى أجزاءٍ، مضطرّةً إلى أن تكون كما هي عليه وفق قوانين

محدّدةٍ، وهي جميعاً وجدت بعد أن لم تكن موجودةً، وهٰذه الأمور تجعلنا نتساءل عمّن أوجدها بعد العدم، ومن حدّدها، ومن جعلها محكومةً لتلك الحدود والقوانين.

والجواب: أن من أوجدها شيءٌ خارج عن تلك السمات والأوصاف، ولو لم يكن خارجاً عن تلك الصفات لدخل ضمن حدود السؤال ولم يتحقّق الجواب.

فهل أجبنا بهٰذا البيان عن السؤال بـ (من أوجدها)؟

أيصحّ لنا أصلاً مثل ذٰلك التساؤل؟

لا يشكّ الإنسان في مثل ذٰلك الجواب عند صفاء فطرته وعدم تراكم الشبهات عنده؛ ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، ولٰكن هل يكفي هٰذا البيان اليوم وقد تراكمت الشبهات حول أوضح الواضحات؟!

وقفةٌ منهجيّةٌ:

لا شكّ أنّ الدليل التامّ يبقى على دلالته، ولكن قد تحوطه عقبتان:

الأولى: عدم الوضوح في صياغته، إمّا لاعتماده على مقدّماتٍ صعبة الفهم أو غير مسلّمةٍ إلّا لذوي التخصّص في العلم.

---

(١) سورة إبراهيم: ١٠.

الثانية: إحاطة الدليل بالشبهات الّتي تقف عائقاً أمام المتلقّي، فلا يكاد يفهمه.

ومن هنا كان لا بدّ من إدارة وجوهٍ من البيان وتعدّد أساليب التوضيح؛ لإيصال الفكرة إلى السامع، وفي مجال كلامنا لا نعتمد على مقدّماتٍ معقّدةٍ، بل على ما يلمسه الإنسان، ولا تختلف المقدّمة في روحها بين الإنسان غير المتعلّم وبين من حقّق أعظم الإنجازات العلميّة أو اطّلع عليها أو تخصّص فيها، فحدوث الأشياء بعد العدم سمةٌ جامعةٌ لكلّ الأشياء، لا يشذّ عنها شيءٌ سوى موجدها الخالق العظيم.

أمّا الشبهات المحيطة بالدليل فهي - وإن غطّت بضبابها نور الحقيقة - تزول بالتأمل والمتابعة والتروّي في الإشكال والجواب؛ فيجب أن لا يعجل الباحث، فربّما فاتته الحقيقة وهي قيد أنملةٍ عنه.

قالوا.. ونقول..

قالوا: ما الجدوى من الاعتقاد بوجود الله؟

ونقول: هو طلب منّا ذٰلك.

قالوا: وما الدليل؟

ونقول: دعوة الأنبياء لنا.

قالوا: ما الدليل على صدق الأنبياء؟

ونقول: الإعجاز هو دليل النبوّة، وستعرفه قريباً في الكلام حول النبوّة.

قالوا: لماذا خلقنا الإلٰه وهو يعلم ما يحيط بنا من آلامٍ؟

ونقول: خلقنا الله – عزّ وجلّ – للاختبار، فمن أطاع نجا، ومن عصى هوى.

قالوا: لماذا خلقنا وهو يعلم أن أكثر الناس لا يؤمنون به، ويستحقّون النار؟

ونقول: خلق الله – تعالى – الإنسان ومهّد له سبيل الطاعة بأمرين:

الأوّل: أنّه أعطاه الاختيار، فليس الإنسان مجبوراً على ما يفعل.

الثاني: بلّغه بما يرضيه وما يسخطه، فأرسل الرسل، ونصّب الأوصياء لأجل ذٰلك.

فلا يصحّ الإشكال السابق، ومثالنا التقريبيّ هو: النظام التعليميّ، فمع وجود الطلّاب وتوفير المدرّسين لهم، وكونهم على مستوىً عقليٍّ يملك الحدّ الأدنى من القدرة على التعلّم، لا يمكن الإشكال بأنّ بعضهم سيفشل في الامتحان.

فهل يصحّ أن نلغي النظام التعليميّ لمجرّد علمنا بوجود طلبةٍ سيفشلون في الامتحان؟

إذن فالحكمة هي المقتضية لوجود الانسان.. والسؤال الصحيح هنا هو: لأي شيء خلقنا؟

والجواب: خلقنا ليكلفنا، فمن اطاعه فله الجنة، ومن عصاه عذبه ان شاء، ويعفو عن كثير..

الدليل الثاني: دليل النظام والدقّة في التكوين

عندما نقف عند هٰذا الدليل نجد أنّه لونٌ من ألوان الدليل السابق؛ لضرورة أنّ الدليل على الخالق لا يخرج عن الخلق، فالمخلوق هو دليلٌ وجود الخالق، ولٰكن لهٰذا اللون من بيان الدليل ينطوي على بيان نظام الخلق ودقّته، وهي شيءٌ عظيمٌ باهرٌ رائعٌ.

وقد استدلّ علماء العقيدة بهٰذا اللون من الاستدلال خلال تاريخ العلم، واستخدموا علوم عصورهم، واليوم ومع التطوّر العلميّ الكبير فإنّنا نلمس (النظام والدقّة) أكثر ممّا فهمه المتقدّمون، وأعمق.

ولا بدّ من تقديم أمثلةٍ[1] لذٰلك.

---

(١) اعتمدنا في الأمثلة على ظواهر عامّةٍ واضحةٍ، تناسب الثقافة العامّة، ولا تدخل في أعماق التخصّص، وإلّا لو دخلنا في تفاصيل أجهزة الكائنات الحيّة لرأينا من اختلافها وتناسقها مع البيئة ما يثير العجب.

الكائن الحيّ.. الحيوان

إنّ في جسم الحيوان من بديع الخلقة ما يبهر العقل في دقّته وانتظامه وتناسق العمل في الجهاز الواحد، وارتباطه بباقي الأجهزة.

المثال الأوّل: التغذية.

التغذية مصطلحٌ يقصد به مجموعةٌ من العمليّات تتعلّق كلّها بالغذاء: كيف يحصل الحيوان على غذائه؟ وكيف يستفيد من الموادّ الغذائيّة الّتي تعدّ أساسيّةً للمحافظة على حياته؟ وكيف يخزن بعض هٰذه الموادّ؟[1].

وتُقسم عمليّات التغذية بصورةٍ عامّةٍ إلى خمس مجموعاتٍ[2]:

١ـ عمليّات الحصول على الغذاء أو التغذّي.

٢ـ عمليّات هضم الغذاء..

٣ـ عمليّات امتصاص الغذاء المهضوم.

٤ـ عمليّات طرد فضلات الغذاء الّتي لم يمكن هضمها

٥ـ عمليّات الاستفادة من الغذاء الممتصّ، أي عمليّات الأيض.

---

(١) أساسيّاتٌ عامّةٌ في علم الفسيولوجيا، الدكتور رشدي فتوح عبد الفتاح، ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٨ م، ص ٢٣.

(٢) المصدر السابق.

ونقول: عندما نلاحظ عالم الحيوانات واختلاف الأغذية الّتي تتناولها، وما يناسب ذٰلك من اختلافٍ في أجهزتها الهضميّة، وتنوّع المحيط الّذي يلبّي لها حاجتها، ونلاحظ كيفيّة استفادة أجسامها من الغذاء الّذي تتغذّى عليه، نقف أمام برنامجٍ هائل الدقّة، فلا يمكننا القول إنّه جاء من صدفةٍ عمياء، بل هناك موجّهٌ عالمٌ قادرٌ وهو الله عزّ وجلّ، فما لكم كيف تحكمون؟!

المثال الثاني: التنفّس.

«كنّا نعرّف التنفّس في السابق بأنّه عمليّة تبادل الغازات بين الحيوان والجوّ المحيط به، وبأنّه العمليّة الّتي يتمّ فيها إيصال الأوكسجين إلى خلايا الجسم للاستفادة منه، والتخلّص من ثاني أوكسيد الكربون بنقله من خلايا الجسم إلى العضو الّذي يقوم بطرده إلى الخارج.

ولٰكنّ التعريف الحديث للتنفّس هو أنّه عمليّة إطلاق الطاقة الكامنة من موادّ موجودةٍ داخل خلايا الجسم.

وممّا لا شكّ فيه أنّ الكائنات الحيّة بحاجةٍ دائماً إلى الطاقة؛ حتّى تستمرّ في أداء نشاطاتها الحيويّة المختلفة. وتحصل معظم الحيوانات على هٰذه الطاقة بعمليّة أكسدةٍ للمركّبات العضويّة المعقّدة الموجودة في أجسامها. وتحتاج هٰذه العمليّة إلى وجود الأوكسجين. وينتج عنها

ثنائيّ أوكسيد الكربون. ويطلق على هٰذا النوع من التنفّس اسم التنفّس الهوائيّ، وعلى الحياة في وجود الأكسجين الحياة الهوائيّة

بيد أنّ هناك عدداً قليلاً جدّاً من الكائنات الحيّة مثل طفيليّات الأمعاء وبعض الكائنات الدقيقة لا تستخدم الأوكسجين لتحرير الطاقة، بل إنّ الأوكسجين يعدّ لبعضها مادّةً سامّةً قد يقتلها. وتتحرّر الطاقة في هٰذه الكائنات بنوعٍ آخر من التفاعل الكيميائيّ، مثل عمليّة التخمّر الكحوليّ الّذي لا يحتاج إلى الأوكسجين، وينتج عنه ثنائي أوكسيد الكربون.

ويطلق على هٰذا النوع من التنفّس اسم التنفّس اللا هوائي، وعلى الحياة في غياب الأوكسجين الحياة اللا هوائيّة »[1].

وأقول: إنّ أدنى ملاحظةٍ لهٰذا النظام العجيب الّذي اختلفت فيه آليّات الاستفادة من المحيط لتحصيل الطاقة، وما يتبعه من اختلافٍ في الأجهزة الّتي يحصل الكائن الحيّ من خلالها على ما يحتاجه من الأوكسجين، لا سيّما بملاحظة أنّ بعضها يحصل عليه من خلال الهواء، وبعضها من الماء، ممّا يجعلنا نتنبه إلى دقّة التكوين، وأن وراءه قوّةً عالمةً قادرةً، لا إلٰه إلّا هو القدير العليم.

---

(١) أساسيّاتٌ عامّةٌ في علم الفسيولوجيا، الدكتور رشدي فتوح عبد الفتاح، ص ١٣٩ و١٤٠.

المثال الثالث: التكاثر.

«يعدّ التكاثر إحدى الصفات المميّزة للكائنات الحيّة. وهو العمليّة الّتي ينتج فيها الكائن الحيّ أفراداً جديدةً من نفس النوع الّذي ينتمي إليه.

ويختلف التكاثر عن بقيّة الوظائف الحيويّة الأخرى في أنّه ليس ضروريّاً للمحافظة على بقاء الفرد ذاته، ولٰكنّه ضروريٌّ للمحافظة على نوع الكائن الحيّ، واستمراريّة بقاء هٰذا النوع على سطح الأرض؛ إذ بواسطة التكاثر تنتقل الحياة من جيلٍ إلى جيلٍ. ولو حدث أنّ أفراد نوعٍ ما من الكائنات الحيّة فقدوا القدرة على التكاثر، فإنّ هٰذا النوع بأكمله سرعان ما يتلاشى ويندثر، ويصبح من الأنواع المنقرضة.

وفي معظم الكائنات الدنيا مثل الأوليّات الحيوانيّة أو البروتوزوا نجد أنّ التكاثر يتمّ في أغلب الأحيان بانقسام الحيوان إلى قسمين، ثمّ ينمو كلّ قسمٍ حتّى يصل إلى الحجم الطبيعيّ للحيوان. ويسمّى هٰذا النوع من التكاثر بالتكاثر اللا تزواجيّ أو اللا جنسيّ.

فإذا انتقلنا إلى الحيوانات الراقية كالإنسان نجد أنّ هناك خلايا خاصّةً تخصّصت بأداء عمليّة التكاثر تسمّى الخلايا الجنسيّة أو التناسليّة، وتسمّى أيضًا الأمشاج. ويوجد نوعان من هٰذه الخلايا: الخليّة التناسلية الذكريّة أو الحيوان المنويّ، والخليّة التناسليّة الأنثويّة أو البيضة.

وتتمّ عمليّة التكاثر باتّحاد الحيوان المنويّ بالبيضة، وهو ما يسمّى بعمليّة الإخصاب؛ ولهٰذا تسمّى هٰذه الطريقة من التكاثر بالتكاثر التزاوجيّ أو الجنسيّ.

ويقوم بإنتاج الخلايا التناسليّة أعضاءٌ تخصّصت لهٰذا الغرض تسمّى أعضاء التناسل، وهي المبيضان عند الأنثى والخصيتان عند الذكر.

وبالإضافة إلى هٰذين العضوين الرئيسيّين هناك أعضاءٌ أخرى ثانويّةٌ، وتكون هٰذه الأعضاء في مجموعها ما يسمّى بالجهاز التناسليّ الذكريّ أو الجهاز التناسليّ الأنثويّ.

وإذا كانت عمليّة الإخصاب أهمّ أحداث التكاثر، فإنّها ليست كلّ شيءٍ فيه»[1].

أقول: وبملاحظة الأنواع المختلفة من الكائنات الحيّة الّتي حولنا واختلاف بيئاتها وأجهزتها التناسليّة، والتكامل بين الذكر والأنثى في وسائل حصول الإخصاب، وتزويد كلّ ذكرٍ وأنثى من نوعٍ مخصوصٍ ما يتكاملان به دون غيرهما من الأنواع، وملاحظة كيفيّة إنتاج تلك الأجزاء المكوّنة للجنين، والحافظة لوجوده، وتنوّع أساليب تغذيته،

(١) أساسيّاتٌ عامّةٌ في علم الفسيولوجيا، الدكتور رشدي فتوح عبد الفتاح، ص ٦٠٥ و٦٠٦.

ونوع الغذاء الصالح له، مع إقدار الأبوين على توفيره، أو إقدار الأبناء على الحصول عليه، وغير ذٰلك من عجائب الخلقة ودقّتها؛ نستطيع أن نجزم أنّ وراءها قادراً عالماً أنشأها، وهو الله عزّ وجلّ.

ولسيّدنا الأستاذ السيّد عزّ الدين الحكيم كلامٌ في المقام يحسن نقله، قال (دام ظلّه): «ولٰكنّ دليل النظام يمكن أن يكون أكثر دلالةً على إثبات الصانع، فيما إذا لوحظ فيه أنّ بعض الموجودات في هٰذا الكون يكمّل بعضها الآخر، بحيث يظهر أنّ خلق بعضها منظورٌ فيه خلق البعض الآخر، وكلّ منهما معدٌّ للآخر، مثل خلق الزوجين الذكر والأنثى، حيث إنّ في كلٍّ منهما جوانب لا تتمّ إلّا بواسطة ما عند الآخر، فكلٌّ منهما مخلوقٌ لأجل الآخر، وخالق كلٍّ منهما عالمٌ بالمخلوق الآخر وعارفٌ بما فيه، والقرآن الكريم يذكر آية خلق الزوجين في أكثر من موضعٍ منه»[1].

الدليل الثالث: المعجزة

والأصل في هٰذا الدليل هو أنّ الأنبياء يقيمون المعاجز دليلاً على صحّة دعواهم بالارتباط بالله تعالى، وأنّهم يبلّغون عنه ما أمرهم به، وأساس ما بلّغوا به هو وجود الله – تعالى – ووحدانيّته. ومن هنا فكلّ ما

(١) بحوثٌ في الفكر والعقيدة، السيّد عزّ الدين الحكيم، ص ٢٦٦.

دلّ على صحّة نبوّة النبيّ دليلٌ تامٌّ على وجود الله - عزّ وجلّ - ووحدانيته.

ولدلالة المعجز شرطان ذكرهما سيّدنا الأستاذ الحكيم (دامت بركاته):

الشرط الأوّل: «أن يكون خرقاً للنظام الكونيّ أو نظام العلّيّة والمعلوليّة، أو لنواميس الطبيعة كما يقال[١]، الّتي ذكرنا أنّها مجعولةٌ من قبل الصانع، فخالق الأشياء هو الّذي منحها نظامها وحركتها وسائر خواصّها، والإعجاز هو تجلٍّ لقدرته - تعالى - في سلب ما أعطاها وتغييره لحالها»[٢].

الشرط الثاني: «ما ذكره في (التجريد) بعنوان مطابقة الدعوى[٣]، أو يحدث عقيب دعوى المدّعي للنبوّة أو جارياً مجرى ذٰلك، كما في شرحه، واشترط في البيان أن يكون شاهداً على صدق الدعوى لمنصبٍ من المناصب الإلٰهيّة[٤]»[٥].

ويرتبط بحث الإعجاز بالنبوّة، فإلى موضعه المناسب؛ لنتكلّم حول المعجزة، وما أثير حولها من تشكيكٍ.

---

(١) البيان للسيّد الخوئيّ، ص ٣٣.

(٢) بحوثٌ في الفكر والعقيدة، السيّد عزّ الدين الحكيم، ص ٢٧١ و٢٧٢.

(٣) كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، ص ٤٧٤.

(٤) البيان في تفسير القرآن، السيّد الخوئيّ، ص ٤٧٥.

(٥) بحوثٌ في الفكر والعقيدة، السيّد عزّ الدين الحكيم، ص ٢٧٧.

الدليل الرابع: دليل الاحتمال.

أسّس المفكّر الكبير والعالم الفقيه السيّد محمد باقر الصدر فكرة (حساب الاحتمالات)، لينجز قفزةً في عالم الفكر كما قيل، وحساب الاحتمالات يقدّم يقيناً بالقضيّة الّتي تخضع له، ومن هنا وضع السيّد المحقّق هٰذه الفكرة في خدمة الفكر في مجالاتٍ متعدّدةٍ منها فهم قضيّة التواتر، ومنها الاستدلال على وجود الخالق عزّ وجلّ.

قال﵀: «يمكن أن نفترض مجموعةً من الظواهر في العالم موضوعًا للاستقراء، وبدلاً عن استخدام الدليل الاستقرائيّ لإثبات أنّ مؤلّف الكتاب إنسانٌ عالمٌ لا إنسانٌ مجنونٌ، يمكن أن نستخدمه لإثبات صانعٍ حكيمٍ لتلك المجموعة من الظواهر»[1].

وبيان المنهج الاستقرائيّ يتلخّص في أنّ وجود ظواهر ما مترابطةٍ فيما بينها لا يفسّر بالصدفة والعشوائيّة في طبيعة تعاملنا مع الحقائق الّتي تواجهنا في حياتنا العلميّة، بل واليوميّة، فكما تفيدنا العلم بما نستنتجه منها في تلك المجالات، فهي أيضاً تفيدنا العلم بوجود الصانع الحكيم، يقول السيّد الشهيد الصدر﵀: «تتلقّى الأرض من الشمس كمّيّةً من الحرارة، تمدّها بالدفء الكافي لنشوء الحياة، وإشباع حاجة الكائن الحيّ

(١) الأسس المنطقيّة للاستقراء، السيّد محمد باقر الصدر، طبعة دار التعارف للمطبوعات، ص ٤٦٢.

إلى الحرارة لا أكثر ولا أقلّ. وقد لوحظ علميّاً أنّ المسافة الّتي تفصل بين الأرض والشمس تتوافق توافقاً كاملاً مع كمّيّة الحرارة المطلوبة من أجل الحياة على هٰذه الأرض، فلو كانت ضعف ما عليها الآن، لما وجدت حرارةٌ بالشكل الّذي يتيح الحياة، ولو كانت نصف ما عليها الآن لتضاعفت الحرارة إلى الدرجة الّتي لا تطيقها حياةٌ.

ونلاحظ أنّ قشرة الأرض والمحيطات تحتجز الجزء الأعظم من الأوكسجين على شكل مركّباتٍ.

وقد لوحظ أنّ نسبة ما هو طليقٌ من هٰذا العنصر تتطابق تمامًا مع حاجة الإنسان وتيسير حياته العمليّة.

ونلاحظ ظاهرةً طبيعيّةً تتكرّر باستمرارٍ ملايين المرّات على مرّ الزمن، تنتج الحفاظ على قدرٍ معيّنٍ من الأوكسجين باستمرارٍ، وهي أنّ الإنسان - والحيوان عموماً - حينما يتنفّس الهواء ويستنشق الأوكسجين، يتلقّاه الدم ويوزّع في كلّ أرجاء الجسم، ويباشر هٰذا الأوكسجين في حرق الطعام، وبهٰذا يتولّد ثنائيّ أوكسيد الكربون، الّذي يتسلّل إلى الرئتين، ثمّ يلفظه الإنسان، وبهٰذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هٰذا الغاز باستمرارٍ، وهٰذا بنفسه شرطٌ ضروريٌّ لحياة كلّ نباتٍ، والنبات بدوره حين يستمدّ ثنائيّ أوكسيد الكربون يفصل الأوكسجين منه، ويلفظه ليعود نقيّاً صالحاً للاستنشاق من جديدٍ،

وبهٰذا التبادل بين الإنسان والحيوان والنبات أمكن الاحتفاظ بكمّيّةٍ من الأوكسجين، ولولا ذٰلك لتعذّر هٰذا العنصر وتعذّرت الحياة نهائيّاً.

نجد أنّ هٰذا التوافق المستمرّ بين الظاهرة الطبيعيّة ومهمّة ضمان الحياة، وتيسيرها في ملايين الحالات، يمكن أن يفسّر في كلّ هٰذه المواقع بفرضيّةٍ واحدةٍ وهي: أن نفترض صانعاً حكيماً لهٰذا الكون، فإنّ هٰذه الفرضيّة تستبطن كلّ هٰذه التوافقات»[١].

فلو لم تكن فرضيّة وجود الله - تعالى - الصانع الحكيم هي الصحيحة لكان البديل في تفسير وجود تلك الظواهر، هو «افتراض مجموعةٍ هائلةٍ من الصدف»[٢]، وهٰذا يعني احتماليّة أن يكون كلّ ما نستنتجه من خلال تجميع القرائن خطأً، ولٰكنّ اجتماع القرائن يؤكّد أنّ الاستنتاج هو الصحيح؛ لعدم إمكان الصدفة توفير كلّ هٰذه التوافقات المتكاملة فيما بينها بشكلٍ عجيبٍ، بل كلّما كان احتمال وجود الأشياء صدفةً ضئيلاً ويزداد ضآلةً فرضنا صدفاً أكثر، بل إنّ احتمال وجود الكون العظيم بما فيه من دقّةٍ في التكوين وانسجامٍ بين أجزائه يكون أمراً خياليّاً.

---

(١) المرسل والرسول والرسالة ـ الشهيد السعيد السيّد محمد باقر الصدر قدس سره، مؤسّسة بضعة الرسول، العراق - بغداد، ص ٣٨ ـ ٤٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٣.

ما هو الله؟

يتساءل الكثيرون عن (الله) ما هو؟

كيف لنا أن نؤمن بإلٰهٍ لا نعرف حقيقته؟

مقدّمةٌ لا بدّ منها

قد يتصوّر بعضنا أنّ هٰذا إشكالٌ صعب الحلّ، كيف نؤمن بإلٰـهٍ لا نعرف حقيقته.

ولٰكن علينا أن نقف أمام نقطتين مهمّتين:

النقطة الأولى: أن الأسلوب العلميّ في التعامل مع الحقائق -بعد التأكّد من أنّها حقائق واقعيّةٌ، لا مجرّد أوهامٍ- هو الاعتراف بواقعيّتها، والتعرّف على قوانينها لأجل التعامل معها، فمن يؤمن بأنّ ما أمامه هو بحرٌ يتعامل معه بأسلوبٍ يختلف عمّا لو عرف أنّه صحراء، فالبحر يتمّ قطعه بالسفن، بينما الصحارى تقطع بوسائل أخرى؛ فالواقع يفرض نفسه، ويحتّم علينا التعامل معه بما يتطلّبه منّا، لا بما نرغب أن يكون عليه.

نعم.. وُفِّقَ الإنسان للتعامل مع الحقائق الطبيعيّة بمعرفة قوانينها، وتوجيهها والاستفادة منها، لٰكنّ هٰذا لا يلغي وجود قوّةٍ حقيقيّةٍ لا يمكنه السيطرة عليها، بل تكون هي المسيطرة على الإنسان، بل إنّ

الاكتشافات العلميّة الحديثة الدالّة على النظام ودقّة الخلق تؤكّد الحاجة إلى الموجود العالم القادر الخالق المكوّن لهذه النظم، والخارج عن حدوده وقيوده، كما بيّناه في أدلّة وجود الله تعالى.

النقطة الثانية: لقد تعامل الإنسان مع بعض الحقائق لأنّه رأى آثارها، وإن حار عقله في تفسيرها وفهم حقيقتها، وأوضح مثال لذلك هو (الكهرباء)، فما هي الكهرباء؟

إنّ اختلاف النظريّات المبيّنة لحقيقة الكهرباء هي أدلّ دليلٍ على الجهل بحقيقتها، وحتّى لو جاءت اليوم نظريّاتٌ مفسّرةٌ ووصلت إلى مرحلة اليقين بها، فإنّ الكهرباء مرّت بعقودٍ طويلةٍ مجهولة الحقيقة، وتعامل الإنسان معها بوصفها حقيقةً؛ لما يراه من آثارها، ولله المثل الأعلى.

النتيجة:

ومن هنا فلا مجال للإشكال السابق، بل إنّ عدم معرفة حقيقة الذات الإلٰهيّة ضرورةٌ معرفيّةٌ؛ وذلك لأنّ العقل البشريّ محدودٌ في فهمه للأشياء، فهو يتعقّل ما له حدودٌ معيّنةٌ تقع ضمن إطار مدركاته، أمّا ما كان غير محدودٍ بتلك الحدود، فلا تناله قدرته، ونؤكّد أنّ في عالمنا اليوم الكثير من الأمور الّتي لا يمكننا إدراك حقيقتها، وللمستقبل

العلميّ المجال الكبير في التعرّف عليها، وتظلّ الحقيقة الإلٰهيّة خارج تلك المقاييس.

أبعاد التوحيد

لا نرغب هنا ببيان أبعاد التوحيد كما بيّنتها كتب العقيدة، نعم هناك بعدٌ ينبغي لنا بيانه، وهو البعد الإنسانيّ والإصلاحيّ في التوحيد.

إنّ الاعتقاد بوجود الإلٰه الواحد العالم بكلّ شيءٍ، وإناطة التشريع به، يجعل من اتّباع ذٰلك الإلٰه طريقاً لحرّيّة الإنسان، وابتعاده عن الاستعباد الّذي ما فتئ ينوء تحته، إذ استعبدت الإنسان أطيافٌ كثيرةٌ يجمعها حبّ التسلّط والانفراد بالثروة، فقسّمت طواغيت الاستعباد الإنسان إلى طبقاتٍ، وكانوا هم في قمّة الهرم الّذي يسعى الجميع لإرضاء شهواتهم بالوصول إليه، فمنذ أن وجدت حضارات البشر الّتي ابتعدت عن وحي السماء وهدايته، وجد الظلم والاستغلال واحتقار كرامة الإنسان.

فالطبقة الحاكمة الّتي دأبت على التمتّع بالجاه والسلطة والمال هي الّتي ادّعت ربوبيّتها للإنسان، فجاء الدين ليقول للإنسان: بل ربّكم الله الّذي تتساوون أمامه في معاشكم ومعادكم.

ليس في دين التوحيد فرعون والأمّة، بل فيه عليٌّ الّذي لا ينام

ولا يشبع وجاره جائعٌ، الّذي يطيع الله في كلّ شيءٍ، ويخشاه كأنّه يراه، فهو ليس السيف المسلّط على رؤوس الناس، بل هو القائل: «الناس صنفان: إمّا أخٌ لك في الدين، أو نظيرٌ لك في الخلق»، هٰذا هو التوحيد الّذي نفهمه، وهٰذا هو الإلٰه الّذي نعبده.

وما يقال من أنّ سلطة الكهنوت (رجال الدين) هي أيضًا سلطةٌ استبداديّةٌ جعلت من رجال الدين طبقةً تتمتّع بمميّزاتٍ من الثروة والسلطة، فهٰؤلاء هم أحد عناصر استعباد الإنسان.

ونقول: نعم لقد تحكّم رجال الدين بالكثير من مقدّرات الإنسان، بل أوصلوه إلى حدّ الطاعة العمياء، والرقابة على فكره وحياته، فكانت المعابد قلاعا للشرّ والتخلّف والتسلّط، لٰكنّ هٰذا في غير الإسلام والتشيّع بالخصوص، فنحن نرى نبيّ الإسلام ﷺ لا يملك داراً، بل يؤوي عائلته في حُجرٍ ملحقةٍ بالمسجد النبويّ الشريف المبنيّ بناءً عاديّاً جدّاً، وسقفه من جريد النخل، ونجد الخليفة وصيّ النبيّ ﷺ لا يتمتّع بأيٍّ من مميّزات المال الّذي يوزّعه على المجتمع دون إثرةٍ، ولا يهمّه أن يبيت جائعاً بعد أن يكون قد أدّى ما عليه، حتّى أنّه لم يؤثر أخاه عقيلاً الّذي شكا إليه كثرة العيال والفقر، فقال له لا تنال إلّا حقّك، وإن أخذت عطائي أعطيتك.

هٰذا هو الإسلام الّذي نفهمه ونؤمن به، وخروج من يخرج عن

هٰذه الضوابط هو خـروجٌ عـن المبـدأ الإسـلاميّ الحنيـف، ولا يمثّـل الإسلام في شيءٍ.

الفصل الثالث
في النبوّة

لا شكّ أنّ المحور الأهمّ في الأديان السماويّة هم الأنبياء عليهم السلام، فهم الرابط بين تعاليم السماء وأهل الأرض، فلا يمكن الفصل بين الدين والنبوّة؛ لأنّها الأساس الوحيد في تلقّي الفكر الدينيّ، ومن هنا تمتلك أبحاث النبوّة مركزيّةً كبيرةً وأهمّيّةً عظيمةً في الفكر الدينيّ، وأرى لزاماً عليّ استعراض الأدلّة على نبوّة الرسول الأكرم محمّدٍ صلى الله عليه وآله، وأهمّها القرآن[1].

---

(١) يحسن بنا هنا أن نذكر موجزاً في الأدلّة الدالّة على صدق نبوّة نبيّنا الأعظم محمّدٍ صلى الله عليه وآله؛ لأنّنا سنركّز بحثنا في أصل الكتاب على القرآن.

٥ـ عقيدتنا في معاجز الأنبياء ومعجزة نبيّنا الأعظم

ولكلّ نبيٍّ معجزةٌ أو معاجز تكون هي الدليل على صدقه في دعوى السفارة الإلٰهيّة، وقد اختلفت معاجز الأنبياء باختلاف أزمنتهم.

وقد كان السحر شائعاً عند أمّة موسى عليه السلام، يعرفونه ويعرفون ما هو من صنعهم، وما هو خارجٌ عن قدرة البشر منه، فأرسل الله - تعالى - موسى بمعاجز هي من قبيل ما يعرفون، وليس ما أتى به رسول الله موسى عليه السلام سحراً، بل هو معجزةٌ، ويعرف الساحر أنّها ليست من السحر وليست ممّا يرتبط بالقدرة البشريّة، بل هي أمرٌ خارقٌ يدلّ على ←

← ارتباط من أتى بها بقوّةٍ خارج نطاق البشر، وهي الله تعالى.

وكان في عصر رسول الله عيسى عليه السلام أن انتشرت الأمراض والأوبئة، فكان للطبّ منزلةٌ ولهم به معرفةٌ، فكانت معاجزه عليه السلام ممّا يعرفون انتسابه لغير القدرة البشريّة.

وكذٰلك سيّد الرسل الله محمّدٌ صلى الله عليه وآله، إذ شاع في زمنه البلاغة والخطب والشعر، فكانت صناعة الكلام ومعرفة دقائق التعبير البلاغيّة ممّا تميّز به العرب آنذاك، فكانت لرسول الله صلى الله عليه وآله معاجز كثيرةٌ، ولٰكنّ الأهمّ منها هو القرآن الكريم، إذ خضعت العرب لبلاغته، وحيّر عقولهم بسبكه وصياغته وأساليبه ومعانيه.

ومن شواهد صدق الرسول الأعظم محمّدٍ صلى الله عليه وآله اعتراف جمعٍ من علماء أهل الكتاب بأنّه النبيّ الّذي بشّر به الأنبياء السابقون.

ومن شواهد صدقه أنّه جاء بنظامٍ معرفيٍّ وتشريعيٍّ مباينٍ تماماً لما كان موجوداً عند البشر آنذاك، ولا يتوقّع أحدٌ أن يكون ذٰلك من نحو التطوّر البشريّ مثيل ما نراه اليوم، فإنّ ما جاء به الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله لا توجد أسسٌ ولا بداياتٌ معرفية تؤهّل المجتمع لإفرازه كانتقالةٍ حضاريّةٍ، ممّا يؤكّد أنّه مرتبطٌ بعالم الغيب.

ومن الأدلّة الواضحة على أحقّيّة الدعوة المحمّديّة إصرار الرسول الأعظم عليها مع ما اكتنفها من صعوباتٍ من بدايتها إلى آخر لحظةٍ من حياته المقدّسة، وكذٰلك أهل بيته وخاصّته، إذ لاقوا من العنت والجفاء بل القتل والتشريد ما يعرفه كلّ من نظر في كتب التاريخ.

مع توفّر الفرصة له صلى الله عليه وآله ولأهل بيته عليهم السلام لأن يأخذوا من الدنيا ما يجعلهم بمنزلةٍ رفيعةٍ في قومهم، لٰكنّهم أصرّوا على أداء الرسالة مع فقدانهم مقوّمات الحياة الأوّليّة من الطعام وغيره، فاكتفوا بما يحفظ حياتهم فقط.

وفي آل البيت المحمديّ من لهم الشأن الكبير الّذي يستوجب الابتعاد عن الخطّ المحمّديّ لولا إيمانهم بأنّه رسول الله، فهٰذا عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام الفارس الشجاع الّذي فاقت شجاعته شجاعة من سبقه – بل لا يدانيه أحدٌ إلى اليوم في الشجاعة ←

إعجاز القرآن

«عجز عن الشيء يعجز عجزًا، فهو عاجزٌ، أي ضعيفٌ»[١]، والمعجزة ما يعجز سائر البشر عن الإتيان بمثله، والقرآن كتاب الله - تعالى - الّذي أنزله على نبيّه محمّد بن عبد الله صلى الله عليه وآله؛ ليكون شاهدًا له وبرهانًا لدينه، وهو كلام الله - عزّ وجلّ - الّذي لا يمكن لبشرٍ مجاراته في نظمه وصياغته، وفي دقّته وبيانه؛ ومن هنا فلا تناقض فيه، ولا يخالف علماً قطعيّاً مهما تقدّم البشر في علومهم، بل تعضده العلوم،

← والصبر، فهو من البيت الهاشميّ الرفيع، وهو ملك الفصاحة العربيّة، وهو من توفّرت فيه صفاتٌ حيّرت العقول - نراه مذعناً لابن عمّه يحميه بنفسه ويقيه بمهجته، فهل هٰذا إلّا لإيمانه الراسخ به؟ وليس الأمر مرتبطاً بالعصبيّة النسبيّة؛ إذ نجد أبا لهبٍ عمّ الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله صار في الصفّ الآخر، وحارب ابن اخيه متعصّباً لما نشأ عليه.

حول الإعجاز

الإعجاز هو فعل ما هو خارج القانون الطبيعيّ للأشياء، فلا يكون إلّا من العالم القادر المسيطر، وهو يشتمل على محورين هامّين:

الأوّل: أنّه فعلٌ مادّيٌّ يراه الإنسان ويدركه بنفسه.

الثاني: الانفعال النفسانيّ الناشئ عن ذٰلك الإدراك الحسّيّ، ومنه تعرف أنّ قيام الحجّة بالإعجاز ظاهرٌ جدّاً لا ينكره إلّا من غلبته شقوته فاستحقّ العذاب، وليست المعجزة إلغاءً للعقل، بل هي عملٌ عقليٌّ حسّيٌّ مشتركٌ. [انظر: معالم العقيدة، حيدر الوكيل، بحث النبوّة]

(١) معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا، ت ٣٩٥ هـ، دار إحياء التراث العربيّ، ص ٧١٢.

ولكن نجد من ادّعى خلاف ذٰلك، فسردوا الكثير ممّا ظنّوه مخالفاً للعلوم الحديثة، بل نسبوه إلى ثقافة عصره، والأغرب أنّ هناك من ادّعى ركاكة بعض آي القرآن، فلا بدّ من التوقّف في مقامين:

المقام الأوّل: نبذةٌ من الآيات الّتي ادّعوا منافتها للإعجاز.

المقام الثاني: نبذةٌ من الآيات الّتي وافقت العلم الحديث، وهي دليلٌ ظاهرٌ وبرهانٌ باهرٌ على أنّ القرآن ليس من عند البشر، ولا هو نتاج ثقافة عصر النبوّة.

المقام الأوّل
نبذةٌ من الآيات الّتي ادّعوا منافتها للإعجاز

ونذكر فيه عدّة موارد[1]:

المورد الأوّل: السماوات السبع.. والفلك الحديث.

قال عزّ وجلّ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[2].

وقال: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[3].

وقال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾[4].

قالوا: إنّ هٰذا الّذي يذكره القرآن مبنيٌّ على قواعد علم الفلك

---

(١) عبّرنا بالموارد لأنّ الإشكال قد ينبني على عدّة آياتٍ.

(٢) سورة البقرة: ٢٩.

(٣) سورة فصّلت: ١٢.

(٤) سورة الملك: ٣.

القديم، وهو ثقافة عصر النصّ، «فصورة الكون في القرآن هي صورة من علم الفلك الأسطوريّ القديم، فالأرض هي مركز العالم وقاعدته الثابتة، تعلوها سبع سماواتٍ طبقاتٍ بعضها فوق بعضٍ، محمولةٌ على أعمدةٍ لا تراها العين. وليس لدى القرآن على ما يبدو أيّ فكرةٍ عن عالمٍ لا نهائيٍّ مليءٍ بالمجرّات والسدم والثقوب السوداء والغبار الكونيّ...»[١].

ونقول: ما يقول هٰذا المستشكل ومن يسلك مسلكه لو كانت هٰذه المجرات والسدم والثقوب السوداء وغيرها ضمن السماء الدنيا؟

قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾[٢].

وقال: ﴿... وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ...﴾[٣].

وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ ...﴾[٤].

فهٰذه النجوم الّتي نراها تزيّن السماء هي زينة السماء الدنيا، فهل خطر ببال هٰذا المعترض على القرآن أين توجد هٰذه النجوم؟ وفي أيّ عمقٍ، وكم من السنين الضوئيّة تبعد عنّا؟

---

(١) محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، جمهوريّة مصر العربيّة – دمنهور، ٢٠٠٤ م.

(٢) سورة الصافّات: ٦.

(٣) سورة فصّلت: ١٢.

(٤) سورة الملك: ٥.

فجميع ما نراه وتمّ الوصول إليه في عصرنا لا يعدو السماء الدنيا، ومن هنا فالإشكال ناشئٌ من عدم الفهم الصحيح للقرآن، والانطلاق في الإشكال على القرآن بتحميل ما فهمه الباحث على النصّ، وبشواهد لا يقبلها النصّ القرآنيّ.

تتميمٌ

ورد في القرآن الكريم الآيات: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۞ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۞ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۞ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1].

قال: «وهٰكذا تكون الأرض وحدها قد تطلّبت منه - سبحانه - ستّة أيّام عملٍ مستمرٍّ. وهي تستحقّ هٰذا الجهد منه تعالى؛ نظراً إلى أهمّيّتها البالغة في العالم، وهٰذا مفهومٌ عند القدماء. كيف لا وهي مركز العالم وقلبه النابض. وما تبقّى فأشياء تافهةٌ: شمسٌ وقمرٌ وسبع

(١) سورة فصّلت: ٩ - ١٢.

سماواتٍ تزيّنها عدّة مصابيح يهتدي بها الناس في البرّ والبحر. وهٰذه كلّها يكفيها يومان فقط بالتمام والكمال»[١].

ونقول: قد ذكروا عدّة أجوبةٍ لهٰذا الإشكال الّذي طرحه الملحدون منذ مئات السنين، ولٰكنّنا نختار ما أجاب به شيخ الطائفة الطوسيّ ﷺ، وهو جوابٌ استظهاريٌّ يعتمد قواعد البيان العربيّ، فقد ذكر الشيخ الطوسيّ ﷺ في (التبيان) جواباً لهٰذا الإشكال بعد أن نسبه إلى الملحدين، فالإشكال قديمٌ تشبّث به الملاحدة، غاضّين أبصارهم عن البيان لهٰذه الآية، والجواب هو: «ومن ذٰلك اعتراض الملحدين في باب النبوّة بما يوهم المناقضة كقوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ...﴾، فقال: اليومان والأربعة واليومان ثمانيةٌ، ثمّ قال: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ...﴾[٢]، فأوهموا أنّ ذٰلك مناقضةٌ.

وليس الأمر على ما ظنّوه؛ لأنّ ذٰلك يجري مجرى قول القائل: سرنا

(١) محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، ص ١٦٢.

(٢) سورة الحديد: ٤.

من البصرة إلى بغداد في عشرة أيّامٍ، وسرنا إلى الكوفة في خمسة عشر يوماً، فالعشرة داخلة في الخمسة عشر، ولا يضاف فيقال: عشرةٌ وخمسة عشر خمسةٌ وعشرون يوماً كان فيها السير، فكذٰلك خلق الله الأرض في يومين، وقضاهنّ سبع سماواتٍ في يومين، وتمّم خلقهنّ في ستّة أيّامٍ، وتقديره خلق الأرض في يومين من غير تتميمٍ، وجعل فيها رواسي وما تمّ به خلقها في أربعة أيّامٍ، فيها اليومان الأوّلان»[1].

المورد الثاني:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

قال: «في هٰذه الآية مغالطةٌ كبيرةٌ مغطّاةٌ بغلالة رقيقةٍ جدّاً لا تراها العين الباصرة إلّا بصعوبةٍ بالغةٍ جدّاً، هٰذا إذا تمكّنت من رؤيتها حقّاً، وهي التوحيد البدائيّ الساذج، بين الموت المجازيّ والموت الحقيقيّ. هناك موتان كما هو معلومٌ: موتٌ حقيقيٌّ وموتٌ مجازيٌّ. والخلط بينهما إمّا تمويهٌ مقصودٌ أو جهلٌ فادحٌ، ولا وسط بينهما. فالأرض الهامدة ميّتةٌ لٰكن بمعنى مجازيٍّ فقط. وأمّا موت الإنسان عندما يتوقّف قلبه ودماغه فهو موتٌ حقيقيٌّ لا حيلة للإنسان فيه.

---

(١) التبيان في تفسير القرآن، الشيخ أبو جعفرٍ الطوسيّ: ج ٢، ص ٣٩٧.

(٢) سورة فصّلت: ٣٩.

ترى، كيف يشبّه الله في القرآن هٰذا بذاك ويصدر عليهما حكماً واحداً؟ ما هٰذا لعمري إلّا غاية الإحالة. ليس الله وحده الّذي يحيي الأرض بعد موتها، بل أنا وأنت أيضاً قادران على إحيائها من غير أن نكون إلٰهين من دون الله، ما دام موتها إنّما هو موتٌ مجازيٌّ ليس له من الموت إلّا اسمه؛ إذ تعيش في التربة كائناتٌ دقيقةٌ من الطحالب والسراخس والجراثيم تعمل على نقل الآزوت من الجوّ وتثبيته في الأرض ليأخذ النبات حاجته منه. وفي ذٰلك صيانةٌ للتربة تكفل لها الخصوبة واستكمال دورات الكربون والنتروجين أو الآزوت اللازمة لها. فالتربة إذن حيّةٌ ناشطةٌ متحرّكةٌ ليست ميّتةً، ومع ذٰلك ينسب إليها القرآن الموت ليبني على ذٰلك قلاعاً وقصوراً من النتائج لا صلة لها بالمقدّمات. ويغدق وعوداً ليس إلى إنجازها من سبيلٍ»[1].

ونقول: ما هو المجاز؟ أليس هو ملاحظة الأمر المشترك بين أمرين؟!

عندما نقول: (زيدٌ أسدٌ) نلاحظ معنى مشتركاً بينهما - زيدٌ والأسد - وهو الشجاعة؛ ليصحّ لنا حمل أسدٍ على زيدٍ، والمراد أنّ زيداً شجاعٌ، وهٰذا هو الأصل في الاستعمالات المجازيّة، فيجب في كل استعمالٍ مجازيٍّ ملاحظة ذٰلك الأمر المشترك المصحّح للاستعمال المجازيّ، وإلّا لكان الاستعمال خطأً وليس مجازاً أصلاً.

(١) محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، ص ١٨٤ و١٨٥.

واستعمال الموت في الأرض استعمال مجازيٌّ شائعٌ معروفٌ، فما هو المشترك بين الموت الحقيقيّ والمجازيّ؟

الآيـة صرّحـت بـه، وهـو (الخشـوع) و(الهمـود) ﴿تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾، وفي آيـةٍ أخـرى ﴿... وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً...﴾[1]، وهٰـذا السكون الظاهريّ هو المعنى المشترك، وفيه تشبيه الأمر الغامض بالأمر المحسوس لإيقاظ الفكر، فهل هناك خلطٌ ليصحّ قوله: «والخلط بينهما إمّا تمويهٌ مقصودٌ أو جهلٌ فادحٌ».

على أنّ دعواه أنّ الأرض «حيّةٌ ناشطةٌ متحرّكةٌ ليست بميّتةٍ» فيها خلطٌ أو تمويهٌ؛ لما اعترف به من مجازيّة التعبير بالموت لضرورة أنّ هٰـذه الجهة ليست محطّ الملاحظة في التعبير المجازيّ، وإنّما الملاحـظ خلوّهـا من النبات، وهٰذا التعبير واضـحٌ مسـتعملٌ متـداولٌ، فـما لكـم كيـف تحكمون؟!

المورد الثالث:

قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ۞ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ۞ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ۞ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا...﴾[2].

---

(١) سورة الحجّ: ٥.

(٢) سورة الكهف: ٨٣ - ٨٦.

قال عباس عبد النور: «لا نزال هنا ندور في علم الفلك الأسطوريّ الضيّق القديم الّذي لا يصعب على السائح فيه أن يبلغ مغرب الشمس ومشرقها، فهي تغرب في عينٍ ذات حمأةٍ - وهي الطين الأسود - ثمّ تغيب في علم الله، حتّى تطلع من المشرق في الطرف الآخر من الأرض. لقد بلغ "ذو القرنين؟!" المشرق والمغرب كأنّما يوجد حقّاً نقطةٌ ثابتةٌ في الكون هي المغرب وأخرى هي المشرق»[1].

ونقول: إن منشأ الإشكال هو أنّ العلم الحديث يقول إنّ الغروب هو عبارةٌ عن غياب الشمس عن الجزء المعيّن من الأرض الناشئ عن دوران الأرض الكرويّة حول نفسها، فلا تكون هناك نقطةٌ واحدةٌ ثابتةٌ تغرب الشمس فيها، ومن هنا فلا مجال علميّاً لدعوى أنّ الشمس تغرب في عينٍ حمئةٍ.

والجواب: علينا أن نسأل ما معنى الآية؟

وهنا لنرجع إلى علماء التفسير لنجد أنّهم -حتّى قدماؤهم- يقولون ما لا يخالف معطيات العلم الحديث، رغم أنّ القدماء منهم كانوا ضمن الأجواء الثقافيّة "الأسطوريّة" الّتي كانت في عصر القرآن، ولم يكن آنذاك للنظريّات العلميّة المعاصرة عينٌ ولا أثرٌ.

١ - جاء في تفسير (التبيان) للشيخ الطوسيّ: «وقال أبو عليٍّ

(١) محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، ص ١٩٢.

الجبّائيّ، والبلخيّ: المعنى وجدها كأنّها تغرب في عينٍ حمئةٍ، وإن كانت تغيب وراءها. قال البلخيّ لأنّ الشمس أكبر من الأرض بكثيرٍ»[١].

٢- في تفسير (مجمع البيان) للشيخ الطبرسيّ: «[قوله:] ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾ معناه: وجدها كأنّها تغرب ﴿فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ وإن كانت تغرب في ورائها. عن الجبّائيّ وأبي مسلمٍ والبلخيّ: لأنّ الشمس لا تزايل الفلك، ولا تدخل عين الماء، ولأنّه قال: ﴿وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾، ولٰكن لمّا بلغ ذو القرنين ذٰلك الموضع، تراءى له كأنّ الشمس تغرب في عينٍ، كما أنّ من كان في البحر رآها كأنّها تغرب في الماء، ومن كان في البرّ يراها كأنها تغرب في الأرض الملساء»[٢].

٣- قال الكاشانيّ في تفسيره (الصافي): «﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ ذات حمأةٍ، وهي الطين الأسود. وقرئ (حامية) أي حارّةٍ، ويحتمل أن تكون جامعةً للوصفين. قيل لعلّه بلغ ساحل البحر المحيط فرآها كذٰلك؛ إذ لم يكن في مطمح بصره غير الماء؛ ولذٰلك قال: وجدها تغرب، ولم يقل: كانت تغرب»[٣].

٤- قال السيّد الطباطبائيّ في (الميزان): «وذكروا أنّ المراد بالعين

---

(١) التبيان، الشيخ الطوسيّ: ج ٧، ص ٨٦.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسيّ: ج ٦، ص ٣٨٠.

(٣) التفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ج ٣، ص ٢٦١.

الحمئة العين ذات الحمأة وهي الطين الأسود، وأنّ المراد بالعين البحر، فربّما تطلق عليه، وأنّ المراد بوجد أنّ الشمس تغرب في عينٍ حمئةٍ أنّه وقف على ساحل بحرٍ لا مطمع في وجود برٍّ وراءه فرآى الشمس كأنّها تغرب في البحر؛ لمكان انطباق الأفق عليه، قيل: وينطبق هٰذه العين الحمئة على المحيط الغربيّ»[١].

وربّما يشهد لهٰذا التفسير أنّ الإمام الصادق عليه السلام نسب التفسير الظاهر من الإشكال إلى "بعض العلماء" في رواية الطبرسيّ: «قال السائل: أخبرني عن الشمس أين تغيب؟ قال: إنّ بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبّة دار بها الفلك إلى بطن السماء، صاعدةً أبداً إلى أن تنحطّ إلى موضع مطلعها»[٢].

ومن هنا يظهر أنّ ما طعن به على الآية هو من سوء التدبّر وعدم المراجعة والتحقيق في معناها.

المورد الرابع: القسم في القرآن

القسم في اللغة العربيّة أسلوب تأكيدٍ، يربط بين المقسم عليه (المُدّعى) وبين المقسم به، ويكون المقسم به شيئاً عظيماً، أو مهمّاً، بحيث ينتقل ذهن السامع إلى أنّ الكذب في تلك الدعوى يكون توهيناً

(١) تفسير الميزان، السيّد محمد حسين الطباطبائي: ج ١٣، ص ٣٦٠.
(٢) الاحتجاج، الطبرسي، دار الأسرة للطباعة والنشر- إيران: ج ٢، ص ٢٤٩.

لذٰلك المقسم به، ولٰكنّه محترمٌ عند من أقسم، إذن المتكلّم صادقٌ أو يؤكّد صدقه؛ لذا نرى أنّ من أقسم كاذباً يكون محطّاً للّوم من جهتين، الأولى لكذبه، والأخرى لتوهينه ما ينبغي احترامه وتعظيمه.

وهٰذا كلّه في قسم المخلوق، أمّا قسم الخالق عزّ وجلّ، فهو يختلف نوعاً ما، فإنّ الله ﷻ عندما يقسم مؤكّداً - على طريقة اللغة العربيّة - فإنّه لا شيءٍ أعظم منه، فقد يقال لِمَ لَمْ يقسم بنفسه فقط؟ والجواب: أنّه - سبحانه - أقسم بنفسه في مواضع قليلةٍ، مثل: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾[1]، كما أقسم بأشياء من خلقه، وهو القسم الأكثر في القرآن؛ للفت انتباه الناس إلى أمرين:

الأول: أهمّيّة تلك الأمور الّتي يقسم بها الله عزّ وجلّ.

والثاني: قيل للترابط بينها وبين المقسم عليه.

وهنا يقال: ما وجه الربط بالقسم بالصافّات والزاجرات والتاليات على أنّ إلٰهكم واحدٌ؟ وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ۞ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ۞ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۞ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[2].

والجواب: أنّ الدليل على وجود الله - تعالى - وعلمه وقدرته الّتي تشكّل الركيزة الأساسيّة للتوحيد مبتنٍ على وجود الأشياء، ونظمها،

---

(١) سورة النساء: ٦٥.

(٢) سورة الصافّات: ١ - ٤.

ودقيق تكوينها؛ ومن هنا فالإشارة إلى ألوانٍ مختلفةٍ من المخلوقات- ممّا لها عجيب الخلقة، وخفيّ التدبير - فيه تركيزٌ للفكرة، وتأكيدٌ للحقيقة، على أنّ القرآن لم يقسم بما خفي دون غيره، ولم يستدلّ به لا سواه، بل ذكر الواضحات في مقام تنبيه العقول، لمّا خفي عليها وجه الاستدلال، فانظر إلى توجيه القرآن الناس إلى النظر في الشمس والقمر والليل والنهار والجبال وخلق الشجر والجمال وغيرها؛ لتجد أنّ الجامع بينها هو حدوثها ووجودها بعد عدمها، ودقّة صنعها الدالّ على وجود الصانع الموجد لها، وهو العالم القادر.

المورد الخامس: ما ادّعوه من ركّةٍ في البيان القرآنيّ

وهٰذا من أعجب العجب، فإنّ الركّة إنّما تكون بمخالفة اللغة في طريقة البيان وأساليبه، ولٰكن غفل هٰذا المستشكل عن أنّ قواعد اللغة العربيّة وفنونها، إنّما وضعت اعتماداً على استقراء النصّ العربيّ القديم؛ لأجل التوصّل إلى تقنين فهمه، وإيصاله إلى الآخرين، والقرآن - حتّى لو قال قائلٌ إنّه ليس كتاباً منزّلاً من الله تعالى - صدر بلا شكٍّ في حقبةٍ زمنيّةٍ مثّلت قمّة الفصاحة والبلاغة العربيّة، فيكون معتبراً من الناحية البيانيّة، ولا يمكن القدح فيه من هٰذه الجهة أصلاً.

ولٰكن لمزيد العناية بتأكيد ما ذكرنا نتعرّض لبعض الأمثلة ممّا ذكروه.

المثال الأوّل:

قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُ...﴾[١].

قال: «أنا لم أفهم لهٰذه الـ "منه" أيّ معنى أو وظيفةٍ، إنّها حشوٌ في حشوٍ»[٢].

وأقول: نعم لا يمكنك فهم هٰذه الكلمة، ومشى بك الوهم إلى أنّها حشوٌ لا وظيفة لها، لٰكن ما ذنب النصّ إذا كنت لا تفهم لغة العرب؟!

والمراد بكلمة "منه" إظهار الفضل والرحمة منه تعالى، بمعنى أنّه سخّر لكم ما في السماوات والأرض تفضّلًا منه ورحمةً، هٰكذا يفهمه العرب والعارفون بلغتهم[٣].

المثال الثاني:

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا

(١) سورة الجاثية: ١٣.

(٢) محنتي مع القرآن: ص ١٦٠.

(٣) انظر: البيان في تفسر القرآن، الشيخ الطوسيّ: ج ٩، ص ٢٥٢؛ التبيان، الشيخ الطبرسيّ: ج ٩، ص ١٢٤.

مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ...﴾[1].

قال: «إنّ نقطة الضعف - بل والركاكة - في الآية السابقة هي سوء استعمال الضمائر إساءةً من شأنها إحداث اختلالٍ في السياق»[2].

والجواب: أنّ الالتفات أسلوبٌ من أساليب العرب في البيان، فيغيّر الخطاب من الحاضر إلى الغائب، تفنّناً في الكلام، ومنه قول الشاعر لبيد:

باتت تشكي إليّ النفس مجهشةً وقد حملتك سبعاً بعد سبعينا

فانتقل من الغيبة إلى الحاضر؛ تفنّناً منه في الكلام، فإن جاءنا من لا يعي طريقة العرب في الكلام نعذره لجهله، لٰكن لا يحقّ له الاعتراض، وهٰذا واضحٌ لمن أطلّ على لغة العرب إطلالةً يسيرةً، فكيف بعلماء العربيّة؟ وهم أهل التخصّص، إليهم يرجع الجاهل، وبحكمهم يقف الشاكّ على رياض اليقين.

المثال الثالث:

قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئۡتِ ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۞ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ۞ وَيَضِيقُ صَدۡرِي وَلَا يَنطَلِقُ

(١) يونس: ٢٢ ـ ٢٣.

(٢) محنتي مع القرآن: ص ١٥٢.

لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَـٰرُونَ ۞ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ۞ قَالَ كَلَّا فَٱذْهَبَا بِـَٔايَـٰتِنَآ إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ۞ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۞ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۞ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ۞ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۞ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۞ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۞ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾[1].

قال: «أنا لم أفهم كيف يكون (التعبيد) أي الاستعباد كما يقول المفسرون، نعمةً يمنّ بها فرعون على موسى، وإذا أريد لهٰذه الآية أن يكون لها معنى، فلا بدّ من قراءتها على الشكل التالي: وتلك نعمةٌ يمنّها الله عليّ، أي: أن أكون من المرسلين نعمةٌ يمنّها الله عليّ.

أمّا بقيّة الآية "أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ" فهي محرّفةٌ لا معنى لها، أو هي بقيّة آيةٍ منسوخةٍ، أو شيءٌ من هٰذا القبيل»[2].

والجواب: أنّ الآية مسوقةٌ على الاستفهام، والاستفهام وهو طلب الفهم، يكون إمّا لطلب فهم ما لم يفهمه السائل أو ما لم يعرفه، وقد يخرج إلى معنى آخر كالاستنكار، ومنه الآية الكريمة. فالمعنى هو: هل تعدّ استعبادك قومي - يا فرعون - منّةً عليّ؟! فألجأتهم إلى أن رمتني

(١) سورة الشعراء: ١٠ - ٢٢.

(٢) محنتي مع القرآن: ص ١٥٨.

أمّي في النهر، فتربيتك لي من ناتج ظلمك لقومي، ولا منّة فيها.

وفي كلام المفسرين ما ينير الطريق وينفي الشبهة:

١ - قال الشيخ الطوسيّ: «وقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ قيل في معناه قولان: أحدهما: أنّ اتّخاذك بني إسرائيل عبيداً قد أحبط ذٰلك، وإن كانت نعمةً عليّ»[١].

٢ - قال الشيخ الطبرسيّ: «والمعنى: لو لم تفعل ما فعلت لكفلني أهلي، ولم يلقوني في اليمّ، فإنّما صارت نعمةً لما فعلت من البلاء»[٢].

٣ـ ذكر الشيخ المجلسيّ: «إنّه لا يوثق بأنّها نعمةٌ منك مع ظلمك بني إسرائيل في تعبيدهم، وفي كلّ ذٰلك دلالةٌ وحجّةٌ عليه، وتقريعٌ له»[٣].

المورد السادس

قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ۞ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ

(١) التبيان، الشيخ الطوسيّ: ج ٨، ص ١٣.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسيّ: ج ٧، ص ٣٢٢.

(٣) بحار الأنوار، العلّامة المجلسيّ: ج ١٣، ص ٩٨.

حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾[1].

قال: «إنّ الآيات المتناقضة في القرآن تكون عادةً متباعدةً متناثرةً هنا وهناك، تفصل بينها مسافاتٌ واسعةٌ إلّا في حالاتٍ قليلةٍ نادرةٍ، كما في الآيتين السالفتين، حيث جاءت الآية الثانية معارضةً للأولى ولمّا يتلاش صداها في الأذن؛ إذ لم تكد الآية الأولى تقرّر أنّ الخير والشرّ كليهما من الله، حتّى جاءت الآية الثانية الّتي تليها مباشرةً لتقرّر العكس، وهو أنّ الخير فقط من الله، وأنّ الشرّ من الإنسان!»[2].

والجواب: هنا لا بدّ من أن نستوضح أمرين:

أوّلهما: أنّ نسبة الفعل الصادر من المخلوق إلى الخالق لا إشكال فيها، لٰكن لا مطلقاً، فإنّ الله - تعالى - هو الّذي خلق الإنسان ومنحه القوّة، ومكّنه من التصرّف؛ ولهٰذا السبب صحّت النسبة إلى الله تعالى، لٰكنّه لمّا نهى عن السيّئة والمعصية، لا تصحّ النسبة له - عزّ وجلّ - لذٰلك.

قال سيّدنا المرتضى علم الهدى: «ويدلّ أيضاً على ما ذكرناه قوله تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ...﴾،

(١) النساء: ٧٨ و٧٩.

(٢) محنتي مع القرآن: ص ١٧٠.

وهٰذا صريحٌ بأنّ السيّئة منّا لا منه. وليس لهم أن يقولوا في الحسنات والطاعات، وهي عندكم فعل العباد، فكيف أضافها الله - تعالى - إلى نفسه؛ لأنّ الطاعة وإن كانت من فعلنا، فقد يصحّ أن يضيفها الله من حيث التمكين فيها والتعريض لها والدعاء إليها فيها، وهٰذه أمورٌ تحسّن هٰذه الإضافة، ولا يجوز ذٰلك في السيّئة؛ لأنّه -تعالى- نهى عنها ومنع من فعلها وفعل كلّ شيءٍ يصرف عن فعلها، فأمّا قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾، فلا يعارض ما ذكرناه؛ لأنّ المراد بالسيّئة هٰهنا الأمراض والمصائب والقحط؛ لأنّ قريشا كانت إذا نزل بها خصبٌ وخفضٌ قالوا: هٰذا من عند الله، وإذا نزل بهم شدّةٌ ومجاعةٌ قالوا: هٰذا شؤم محمّدٍ حاشا له من ذٰلك، فبيّن - تعالى - أنّ ذٰلك كلّه من الله تعالى»[1].

والآخر: أنّ للسيّئة معنيين: أحدهما المعصية، والآخر الشرّ الواصل للإنسان، وإليك كلام المفسّرين:

١ـ قال القمّيّ: «[قوله:] ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني الحسنات والسيّئات، ثمّ قال في آخر الآية: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا

(١) رسائل المرتضى، الشريف المرتضى: ج ٣، ص ١٩٤.

أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَفْسِكَ﴾، وقد اشتبه هٰذا على عدّةٌ من العلماء، فقالوا: يقول الله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ الحسنة والسيّئة، ثمّ قال في آخر الآية: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾، فكيف هٰذا وما معنى القولين؟ فالجواب في ذٰلك أنّ معنى القولين جميعاً عن الصادقين عليهما السلام أنّهم قالوا الحسنات في كتاب الله على وجهين، والسيّئات على وجهين، فمن الحسنات الّتي ذكرها الله الصحّة والسلامة والأمن والسعة والرزق، وقد سمّاها الله حسناتٍ، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ يعني بالسيّئة هٰهنا المرض والخوف والجوع والشدّة، ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ أي يتشاءموا به. والوجه الثاني من الحسنات يعني به أفعال العباد، وهو قوله: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ ومثله كثيرٌ، وكذٰلك السيّئات على وجهين، فمن السيّئات الخوف والجوع والشدّة، وهو ما ذكرناه في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾. وعقوبات الذنوب، فقد سمّاها الله السيّئات. والوجه الثاني من السيّئات يعني بها أفعال العباد الّتي يعاقبون عليها، فهو قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾، وقوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ يعني ما عملت من ذنوبٍ فعوقبت عليها في الدنيا والآخرة فمن

نفسك بأفعالك؛ لأنّ السارق يقطع، والزاني يجلد ويرجم، والقاتل يقتل، فقد سمّى الله - تعالى - العلل والخوف والشدّة وعقوبات الذنوب كلّها سيّئاتٍ، فقال: ﴿وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ بأعمالك. وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ يعني الصحّة والعافية والسعة والسيّئات الّتي هي عقوبات الذنوب من عند الله»[١].

٢- قال الشيخ الطوسيّ: «الثاني - أنّ معناهما مختلفٌ، فالأوّل عند أكثر أهل العلم أنّ المراد به النعمة، والمصيبة من الله تعالى. وفي الآية الثانية المراد به الطاعة والمعصية؛ فلمّا اختلف معناهما لم يتناقضا»[٢].

المورد السابع: اليهود شعب الله المختار!

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[٣].

وفي آيةٍ أخرى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ يَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٤]، وقال

(١) تفسير القمّيّ، عليّ بن إبراهيم القمّيّ: ج ١، ص ١٤٤ و١٤٥.
(٢) التبيان، الشيخ الطوسيّ: ج ٣، ص ٢٦٦.
(٣) سورة البقرة: ٤٧، ١٢٢.
(٤) سورة المائدة: ١٨.

تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[1].

ظنّ الملحد أنّ بين هٰذه الآيات تناقضاً، فكيف يكون بنو إسرائيل مفضّلين على العالمين؟ ثمّ يقول إنّه يعذّبهم بذنوبهم، قال: «كلّا، اليهود ليسوا شعب الله المختار، بل هم كسائر البشر»[2].

والجواب أنّه لا بدّ من ملاحظة أمورٍ:

الأوّل: أنّ التفضيل لا يعني عدم المساءلة والتكليف الكاشف عن تقوى الإنسان، ولا يرفع التفضيل قلم التكليف عنهم؛ لذٰلك نجد أنّ النصّ المذكور جاء بعده مباشرة: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[3]، و﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[4].

الثاني: ما هو التفضيل؟ بم فضّلوا؟ فإنّ بني إسرائيل بعث الله -تعالى- فيهم أنبياء كثيرين، وأنجاهم من فرعون، وغير ذٰلك، وهٰذا لا ينافي مساءلتهم ومحاسبتم عند معصيتهم.

---

(١) سورة الجمعة: ٦.

(٢) محنتي مع القرآن، ١٧١.

(٣) سورة البقرة: ٤٨.

(٤) سورة البقرة: ١٢٣.

الثالث: أنّ التفضيل ليس هو جعلهم ابناءً له -تعالى الله عن ذٰلك-، فدعواهم لأمرٍ غير ما فضّلوا به، فلا تناقض في الآيات الكريمة.

تنبيهٌ:

من الملاحظ أنّ مؤلّف كتاب (محنتي مع القرآن) لا يترك مناسبةً للهجوم على العلماء المسلمين إلّا واستغلها، فهو يكيل التهم، ويلقي باللوم على علماء التفسير والبلاغة؛ لأنّه يعرف أنّ ما جاء به لا ينطلي إلّا على من لم يراجع كتب التفسير، ولم يعرف شيئاً من البلاغة، وإلّا فإنّ إشكالاته ما هي إلّا إيهاماتٌ، لا أساس لها، ومن هنا ندعو إلى المتابعة قبل التصديق، بل قبل أن تستأنس النفوس إلى مثل هٰذه الدعاوى، وإلى العمل الجادّ على بثّ ثقافة القراءة في الجيل، ومراجعة تراث السلف الصالح من علماء الأمّة، وسؤال أهل العلم؛ إعزازاً للعلم، واحتراماً للعقل من أن يستخفّه مثل هٰذا الرجل.

المورد الثامن:

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

(١) المائدة: ٦٤.

قالوا: إنّ هنا إشكالين: الأوّل: خطأٌ نحويٌّ وهو (قالت اليهود)؛ لأنّ اليهود مذكّرٌ بتقدير شعب.

الثاني: أنّ في الآية دلالةً على التجسيم باستعمال لفظة (يد) لله.

والجواب عن الإشكال الأوّل: أنّ المستشكل لم يعرف قواعد التاء، فإنّ الفاعل إن كان مذكّراً لم تلحق التاء الفعل، مثل: قال زيد.

وتلحق التاء للفعل في موارد:

الأوّل: إن كان الفاعل مؤنّثاً حقيقيا، مثل: قالت ليلى.

الثاني: إن كان الفاعل مؤنّثاً مجازيّ التأنيث، مثل: طلعت الشمس.

الثالث: إن كان الفاعل جمع تكسيرٍ او اسم جمع، مثل: تكسّرت الأقلام، قالت الأعراب، قالت اليهود. والتقدير هنا (جماعة) وليس (شعب) كما ظنّه المستشكل.

الجواب عن الإشكال الثاني: اليد تأتي مجازاً بمعنى النعمة، وغيرها.

قال الشيخ الطوسيّ رحمه الله: «وأمّا اليد فإنّها تستعمل على خمسة أوجهٍ: أحدها الجارحة، والثاني النعمة، الثالث القوّة، الرابع الملك، الخامس تحقيق إضافة الفعل، قال الله تعالى: ﴿أُوْلِي ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ معناه القوى، ويقال: لفلانٍ على فلانٍ يدٌ، أي نعمةٌ، وله عليّ يدٌ أشكرها، أي

نعمةٌ. وقال الشاعر:

لـه في ذوي الحاجـات أيـدٍ كأنّهـا مواقع مـاء المـزن في البلـد القفـر

ومثل ذٰلك يقولون له عليـه صـنعٌ حسـنةٌ. وقولـه: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ﴾ معناه من يملك ذٰلـك، وقولـه: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ أي تولّيت خلقه»[1].

وفي الخبر عن أبي عبد الله عليه السلام أنّه قال: «في قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ لم يعنوا أنّه هٰكذا، ولٰكنّهم قالوا: قد فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص! فقال الله - جلّ جلاله - تكذيباً لقولهم: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾. ألم تسمع الله -عزّ وجل- يقول: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2].

تتميمٌ:

كيف يردّ الله على اليهـود الّـذين سـبّوه بسـبٍّ، وزاد عـلى قـولهم ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟...﴾، ألا يـدلّ هٰـذا عـلى لـونٍ مـن الانفعـال غـير المسيطر عليه؟

والجواب: ليس قول اليهود سبّاً لله تعالى، بل هـو عقيـدةٌ فاسـدةٌ،

---

(١) التبيان، الشيخ الطوسيّ: ج ٣، ص ٥٨٠.

(٢) معاني الأخبار، الشيخ الصدوق: ص ١٨.

يلزم منها النقص في الله عزّ وجلّ، فردّ بنسبة النقص إليهم، لٰكن لا بنحو الانفعال النفسيّ، بل كشفاً للحقيقة، وبياناً لواقعهم. وما يستحقونه من الابتعاد عن الله تعالى.

المورد التاسع:

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

قالوا: أين موقع الكائنات أحاديّة الجنس أو الخليّة؟ فهي تنقض هٰذه القاعدة (كلّ شيءٍ زوجين)، بل هي تدلّ على سطحيّة ذٰلك التصوّر.

والجواب:

أوّلاً: إن الإشكال مبتنٍ على (كلّيّة) القضيّة المستفادة من الآية، ولٰكن غفل المستشكل عن أن القضايا الكلّيّة على صنفين:

الصنف الأوّل: الكلّيّات العقليّة (الدقّيّة)، وهي الّتي يثبت فيها الحكم للموضوع بلا تخلّفٍ، مثل: كلّ إنسانٍ جسمٌ.

الصنف الثاني: الكلّيّات الغالبية (العرفيّة)، وهي الّتي يثبت فيها الحكم لأغلب أفراد الموضوع، مثل: كلّ أهل بغداد طيّبون. فبالضرورة أنّ فيهم أشراراً، لٰكنّ السمة الغالبة لهم الطيبة مثلاً.

فالآية ربّما سيقت مساق الكلّيّة الغالبيّة لا الدقّيّة، فلا إشكال.

---

(١) سورة الذاريات: ٤٩.

ثانياً: أن هٰذه الكائنات الحيّة تتكاثر أم لا؟

فما هو دافعها للتكاثر؟ أي كيف تتكاثر؟ أليس فيها ما يحفّزها للتكاثر؟

فيكون هناك شيئان أحدهما يدفع الآخر نحو الانقسام والتكاثر، سمّهما - إن شئت - ذكراً وأنثى.

المورد العاشر:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

قال الشيخ الطوسيّ: «أخبر الله - تعالى - أنه لم يرسل فيما مضى من الأزمان رسولاً إلى قومٍ إلّا بلغة قومه، حتّى إذا بيّن لهم فهموا عنه، ولا يحتاجون إلى من يترجم عنه»[2].

إذن فاللغة أمرٌ مهمٌّ بالنسبة لمن يرسل إليهم الرسل، ومن هنا يحقّ لمن ليسوا من أهل اللغة أن يقولوا: لم ترسل لنا من نفهمه؟

بل إنّ أهمّ معاجز نبيّ الإسلام هي القرآن وهو ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾ فكيف يفهمه وتقوم الحجة بإعجازه على أبناء اللغات الأخرى؟

---

(١) سورة إبراهيم: ٤.

(٢) التبيان، الشيخ الطوسيّ: ج ٦، ص ٢٧٣.

بل يمكنهم أن يقولوا: ما دام القرآن ليس بلغتنا فهو ليس لنا؛ لأنّ ترجمته إلى لغاتنا تفقده إعجازه اللغويّ.

وهناك آيةٌ أخرى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾[1].

فالإسلام دينٌ للعرب، ولٰكنّنا نجد القرآن في آيةٍ أخرى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ﴾[2]. وفي آيةٍ ثانيةٍ يقول: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[3].

وقد أقرّ القرآن هٰذه الحقيقة فقال: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۞ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۞ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۞ وَإِنَّهُۥ لَفِي زُبُرِ ٱلۡأَوَّلِينَ ۞ أَوَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ ءَايَةً أَن يَعۡلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۞ وَلَوۡ نَزَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ بَعۡضِ ٱلۡأَعۡجَمِينَ ۞ فَقَرَأَهُۥ عَلَيۡهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤۡمِنِينَ ۞ كَذَٰلِكَ سَلَكۡنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۞ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾[4]، فها هو الله يخبرنا أنّه لو نزل هٰذا القرآن العربيّ على بعض الأعجمين لم يؤمنوا به حتّى يروا العذاب الأليم وهو يوم القيامة.

---

(١) سورة الشورى: ٧.

(٢) سورة التوبة: ٣٣؛ سورة الصفّ: ٩.

(٣) سورة سبأ: ٢٨.

(٤) سورة الشعراء: ١٩٣ ـ ٢٠١.

بل إنّ القرآن أقرّ أهل الكتاب ليحكموا بكتابهم: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

والجواب: أنّ إرسال الرسول بلغة قومه لا ينافي إرساله إلى عموم البشر، فيكون أهل اللغة معلّمين ومبيّنين للقرآن، لا سيّما أنّه جعل قيّمين على القرآن مسؤولين عن بيان آياته وشرحه للناس من العرب وغيرهم، وهم الأئمّة الاثنا عشر عليهم السلام.

وعليك أن تقرأ كلام الشيخ الطبرسيّ بإمعانٍ، قال رحمه الله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ أي: لم يرسل فيما مضى من الأزمان رسولاً إلّا بلغة قومه؛ حتّى إذا بيّن لهم فهموا عنه، ولا يحتاجون إلى من يترجمه عنه، وقد أرسل الله - تعالى - نبيّنا محمّداً صلى الله عليه وآله إلى الخلق كافّةً بلسان قومه، وهم العرب بدلالة قوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾. قال الحسن: امتنّ الله على نبيّه محمّدٍ صلى الله عليه وآله أنّه لم يبعث رسولاً إلّا إلى قومه، وبعثه خاصّةً إلى جميع الخلق، وبه قال مجاهدٌ، وقيل: إنّ معناه أنّا كما أرسلناك إلى العرب بلغتهم لتبيّن لهم الدين، ثمّ إنّهم يبيّنونه للناس، كذٰلك أرسلنا كلّ رسولٍ بلغة قومه، ليظهر لهم الدين»[2].

---

(١) سورة المائدة: ٤٣.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسيّ: ج ٦، ص ٥٨.

أمّا الترجمة، فهي طريقٌ عقلائيٌّ لنقل الفكر من لغةٍ إلى أخرى، ولا ينحصر إعجاز القرآن بألفاظه، بل فيه من نواحي الإعجاز مجالاتٌ أخرى، كالإعجاز الغيبيّ والعلميّ، وهو بعد ذٰلك يحوي من المفاهيم الراقية الّتي تتكفّل هداية البشر ما يجعله منارًا للهدى، ومن هنا فالترجمة أمرٌ ضروريٌّ، لٰكن وفق معايير خاصّةٍ.

وللفقيه الكبير السيّد الخوئيّ ﷺ كلامٌ مهمٌّ حول الترجمة، وإليك نصّه: «ترجمة القرآن وشروطها: لقد بعث الله نبيّه لهداية الناس فعزّزه بالقرآن، وفيه كلّ ما يسعدهم ويرقى بهم إلى مراتب الكمال، وهٰذا لطفٌ من الله لا يختصّ بقومٍ دون آخر، بل يعمّ البشر عامّةً، وقد شاءت حكمته البالغة أن ينزّل قرآنه العظيم على نبيّه بلسان قومه، مع أنّ تعاليمه عامّةٌ، وهدايته شاملةٌ؛ ولذٰلك فمن الواجب أن يفهم القرآن كلّ أحدٍ ليهتدي به. ولا شكّ أنّ ترجمته ممّا يعين على ذٰلك، ولٰكنّه لا بدّ وأن تتوفّر في الترجمة براعةٌ وإحاطةٌ كاملةٌ باللغة الّتي ينقل منها القرآن إلى غيرها؛ لأنّ الترجمة مهما كانت متقنةً لا تفي بمزايا البلاغة الّتي امتاز بها القرآن، بل ويجري ذٰلك في كلّ كلامٍ؛ إذ لا يؤمَن أن تنتهي الترجمة إلى عكس ما يريد الأصل. ولا بدّ إذن في ترجمة القرآن من فهمه، وينحصر فهمه في أمورٍ ثلاثةٍ:

١ - الظهور اللفظيّ الّذي تفهمه العرب الفصحى.

٢ - حكم العقل الفطريّ السليم.

٣ - ما جاء من المعصوم في تفسيره.

وعلى هٰذا تتطلّب إحاطة المترجم بكلّ ذٰلك؛ لينقل منها معنى القرآن إلى لغة أخرى. وأمّا الآراء الشخصيّة الّتي يطلقها بعض المفسّرين في تفاسيرهم، لم تكن على ضوء تلك الموازين فهي من التفسير بالرأي، وساقطةٌ عن الاعتبار، وليس للمترجم أن يتّكل عليها في ترجمته. وإذا روعي في الترجمة كلّ ذٰلك فمن الراجح أن تنقل حقائق القرآن ومفاهيمه إلى كلّ قومٍ بلغتهم؛ لأنّها نزلت للناس كافّةً، ولا ينبغي أن تحجب ذٰلك عنهم لغة القرآن ما دامت تعاليمه وحقائقه لهم جميعاً»[1].

وأخيراً.. نقطةٌ منهجيّةٌ

لا بدّ من ملاحظة أمورٍ:

الأمر الأوّل: أنّ القرآن نزل بلغة العرب وكانوا آنذاك في قمّة البلاغة، وأوج الفصاحة، ملكوا ناصية البيان، وأبدعوا في أساليب النثر وروائع الشعر، حتّى أقاموا للبيان مواسم، وحفظت عنهم فيه نصوصٌ كثيرةٌ، جميلةٌ تسحر السامع وتنعش النفس.

---

(١) البيان في تفسير القرآن، السيّد الخوئيّ: ص ٥٠٥.

وقد جاء بالقرآن رجلٌ من قريشٍ، لم يتبعه في أوّل أمره إلّا امرأته خديجة بنت خويلدٍ عليها السلام، وفتىً هو ابن عمّه عليّ بن أبي طالبٍ عليه السلام، ولم يجاوز عامه العاشر وقتها؛ فلا قوّة تحميه، ولا عشيرة تستطيع مقاومة المجتمع العربيّ في تلك الحقبة، وقد ألغى نظاماً ثقافيّاً وسياسيّاً واجتماعيّاً كان قائماً، فجعل العبيد سادةً، والسادة عبيداً، فما أعظمه من تحدٍّ! وقد تحدّى لإبطال دعوته بالإتيان بمثل القرآن، بل بعشر سورٍ من مثله، وأخيراً بسورةٍ واحدةٍ.

فهل من المعقول المقبول أن تترك العرب - وهم أمّة البيان - ذٰلك التحدّي دون جوابٍ، والمفروض أنّهم أهل البيان، لولا أنّه كان ممتنعاً عليهم الإتيان بمثله، كما اعترف به بعضهم[1]: «والله إنّ له لحلاوةً، وإنّ عليه لطلاوةً، وإنّ أعلاه لمثمرٌ، وإنّ أسفله لمغدقٌ، وما يقول هٰذا بشرٌ»[2].

فلماذا عرض هٰؤلاء الناس المتمكّنون من المعارضة أنفسهم وأهليهم ومواقعهم الاجتماعيّة والسياسيّة للهلاك، وكان بوسعهم مجاراة الكلام بالكلام، وهو - بلا شكٍّ - أهون من ضرب السيوف وقطع الأعناق.

---

(١) هو الوليد بن المغيرة، أبو خالد بن الوليد.

(٢) مناقب آل أبي طالبٍ، ابن شهر آشوب: ج ١، ص ٤٩؛ مجمع البيان في تفسير القرآن، الشيخ الطبرسيّ: ج ٦، ص ١٩٢.

من هنا نرى أنّ سبب إعراضهم عن المجاراة هو علمهم بأنّه ليس من نوع كلام البشر، وهو اعترافٌ منهم بإعجازه، كما تقدّم من كلام المشرك وإقراره بأنّ القرآن لا يقول مثله بشرٌ.

الأمر الثاني: أنّ العلوم الحديثة - مهما بدت متقدّمةً - فإنّ الكثير منها ليس علماً قطعيّاً، بل هي فرضيّاتٌ لم تصل إلى حدّ اليقين بمضمونها، وأدلّ دليلٍ على ذٰلك أنّ النظريّات العلميّة الحديثة بين أمرين:

أحدهما: الإلغاء من أصلها والمسير باتّجاه نظريّاتٍ جديدةٍ.

وثانيهما: تعديل النظريّات القديمة بما ينسجم مع الاكتشافات الحديثة، والدراسات الجديدة.

ونحن إذ نثمّن دور هٰذه العلوم، ونشدّ على عضد العاملين لخدمة الإنسانيّة وتطوّرها، لا نجد من واجبنا بوصفنا مسلمين أن نغيّر من فهمنا للقرآن بما يناسب تفاصيل تلك الأطروحات الحديثة، وإلّا لكان لزاماً علينا أن نتناقض - في تفسيرنا للقرآن أو السنّة - مع كلّ تعديلٍ تجيء به تلك العلوم، ومن هنا فإنّنا في ردّنا هنا على شبه من تعرض للقرآن بنقدٍ أو توهّم منافاته لعلمٍ، قمنا بالجهد الاستظهاري الّذي يمكنّنا من بيان عدم التنافي، وليس الموافقة لتفاصيل تلك النظريّات.

الأمر الثالث: لا شكّ أنّ القرآن - وهو نصٌّ عربيٌّ - يفهمه العرب؛

لأنّه بلغتهم، ليعقلوه. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[١]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾[٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾[٣]، ولٰكن ينبغي الانتباه إلى نقطتين:

النقطة الأولى: أنّ تباعد الزمان عن اللغة الأمّ الّتي نزل بها القرآن يجعلنا اليوم بحاجةٍ إلى التخصّص في فهم معطيات النصّ القرآنيّ، ولا يصحّ التعامل معه كنصٍّ عربيٍّ معاصرٍ؛ لضرورة أنّ اللغة الّتي يتكلّم بها العرب اليوم لا تتطابق مع لغة قريش الّتي نزل بها القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان، فلا يمكن تحميل الأسلوب والمفاهيم المعاصرة – العامّيّة والعلميّة والأدبيّة – على النصّ القرآنيّ، بل يجب الرجوع إلى الدراسات الأدبيّة والقرآنيّة لاستيضاح ما في القرآن.

النقطة الثانية: أنّ العارف باللغة العربيّة يمكنه الاستفادة من الكثير من النصوص القرآنيّة، وهٰذا واضحٌ بأدنى ملاحظةٍ، ولٰكن لا يفي ذٰلك بمعرفة كلّ ما في القرآن – وهو الكتاب الإلٰهيّ المعجز –

(١) سورة يوسف: ٢.

(٢) سورة طٰهٰ: ١١٣.

(٣) سورة الشورى: ٧.

لذلك نجد أنّ المبلّغ الإسلاميّ – أعني الرسول الأعظم والأئمّة الأطهار عليهم السلام – فتحوا الباب واسعاً للرجوع إليهم، ولم يأذنوا بالعودة إلى غيرهم لبيان القرآن وشرحه وتفسيره، ففي الخبر عن الرسول الأعظم محمّدٍ صلى الله عليه وآله: «من فسّر القرآن برأيه فقد افترى على الله الكذب»[١].

وعن أبي عبد الله الإمام جعفرٍ الصادق عليه السلام أنّه قال: «من فسّر القرآن برأيه، إن أصاب لم يؤجر، وإن أخطأ خرّ أبعد من السماء»[٢].

ومن هنا فقد سدّ المبلّغون عن الله – تعالى – باب التلاعب بالقرآن، كما أنّهم حدّدوا مرجعيّة فهم النصّ القرآنيّ بأمرين:

الأوّل: لغة العرب. ففي الخبر عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «قلت لأبي جعفرٍ عليه السلام: ألا تخبرني من أين علمت وقلت: إنّ المسح ببعض الرأس وبعض الرجلين؟ فضحك، ثمّ قال: يا زرارة، قال رسول الله صلى الله عليه وآله ونزل به الكتاب من الله؛ لأنّ الله – عزّ وجلّ – يقول: ﴿فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ فعرفنا أنّ الوجه كلّه ينبغي أن يغسل، ثمّ قال:

---

(١) كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق: ص ٢٥٧.

(٢) وسائل الشيعة، الحرّ العامليّ محمّد بن الحسن، طبعة مؤسّسة آل البيت: ج ٢٧، ص ٢٠٢. وهناك رواياتٌ كثيرةٌ في ذلك، عقد لها العيّاشيّ رحمه الله بابًا في تفسيره: ج ١، ص ١٧؛ وكذا المجلسيّ رحمه الله في (البحار): ج ٨٩، ص ١٠٧.

﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ﴾، ثمّ فصل بين الكلام فقال: ﴿وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ﴾ فعرفنا حين قال: ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ أنّ المسح ببعض الرأس لمكان الباء، ثمّ وصل الرجلين بالرأس كما وصل اليدين بالوجه: فقال: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ﴾ فعرفنا حين وصلها بالرأس أنّ المسح على بعضها»[١].

«وقد قسّم ابن عبّاسٍ رضي الله عنه وجوه التفسير إلى أربعة أقسامٍ: تفسيرٍ لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسيرٍ تعرفه العرب بكلامها، وتفسيرٍ يعلمه العلماء، وتفسيرٍ لا يعلمه إلّا الله. فأمّا الّذي لا يعذر أحدٌ بجهالته فهو ما يلزم به الكافّة من الشرائع الّتي في القرآن، وجلّ دلائل التوحيد. وأمّا الّذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم. وأمّا الّذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام. وأمّا الّذي لا يعلمه إلّا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب، وقيام الساعة»[٢].

الثاني: الرجوع إليهم، ليس القرآن بكامل علومه شرعةً لكلّ واردٍ، ولا نهزةً لكلّ طامعٍ، بل هناك مرجعيّةٌ حدّدها الإسلام لبيان أعماقه، وتفسير ما خفي منه.

١ـ عن بريد بن معاوية، عن أحدهما عليهما السلام في قوله الله عزّ وجلّ:

---

(١) الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج ٣، ص ٣٠.

(٢) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسيّ: ج ١، ص ٢٦.

﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾[١] فرسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم، قد علّمه الله -عزّ وجلّ- جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل، وما كان الله لينزل عليه شيئاً لم يعلمه تأويله، وأوصياؤه من بعده يعلمونه كلّه، والّذين لا يعلمون تأويله إذا قال العالم فيهم بعلمٍ، فأجابهم الله بقوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَا﴾ والقرآن خاصٌّ وعامٌّ ومحكمٌ ومتشابهٌ، وناسخٌ ومنسوخٌ، فالراسخون في العلم يعلمونه[٢].

٢ـ عن أبي بصيرٍ قال: «قال أبو جعفرٍ عليه السلام في هٰذه الآية: ﴿بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾، ثمّ قال: أما والله يا أبا محمّدٍ، ما قال بين دفّتي المصحف. قلت: من هم جعلت فداك؟ قال: من عسى أن يكونوا غيرنا»[٣].

٣ ـ عن سديرٍ، عن أبي جعفرٍ عليه السلام قال: «قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: نحن خزّان علم الله، ونحن تراجمة وحي الله، ونحن الحجّة البالغة على من دون السماء ومن فوق الأرض»[٤].

---

(١) سورة آل عمران: ٦.

(٢) الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج ١، ص ٢١٣.

(٣) الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج ١، ص ٢١٤.

(٤) الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج ١، ص ١٩٢.

المقام الثاني
نبذةٌ عن الآيات الّتي وافقت العلم الحديث

إنّ القرآن ليس كتاباً علميّاً، بمعنى أنّه ليس متخصّصاً في بيان النظريّات العلميّة، ولٰكنّ هٰذا لا ينفي أنّه لمّا كان صادراً عن الله - تعالى- خالق الكون، العالم بقوانينه، فإنّنا نلاحظ أنّ ما فيه ينسجم مع الحقائق العلميّة، ونستطيع أن نقول إن هٰذه الحقيقة العلميّة أو تلك مذكورةٌ في القرآن، بمعنى انسجام آياته معها.

وهنا نذكر عدّة موارد:

المورد الأوّل

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾[1].

قال القمّيّ في تفسيره: «أطراف الأصابع لو شاء الله يسوّيها»[2].

---

(١) سورة القيامة: ٣ و٤.

(٢) تفسير القمّيّ: عليّ بن إبراهيم القمّيّ: ج ٢، ص ٣٩٦.

ففي الآية الكريمة من التنويه بالبنان ما لا يخفى، والسرّ في اختيار البنان -طرف الإصبع- ما لا يخفى من وجود أسرارٍ فيه، من تشكّلها في كلّ إنسانٍ بشكلٍ يختلف عن الآخر، حتّى جُعلت مميّزاً للإنسان عن سواه من البشر، رغم أعداد البشر المليّاريّة، فلا تختلط هٰذه الأشكال، حتّى اعتمدتها الدول كمميّزٍ حقيقيٍّ للأشخاص، إذ يحتاجون إلى مميّزٍ عصيٍّ على التزوير والتغيير. وأين عرب الجزيرة - بل وسائر حضارات تلك الفترة - من هٰذه الفكرة؟! إنّما علّمها خالق الإنسان.

المورد الثاني

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾[1].

فإنّ ضيق الصدر إنّما هو لقلّة الأوكسجين في طبقات الجوّ العليا، فكلّما ارتفع الإنسان عن سطح الأرض كلّما نقصت كميّة الأوكسجين، وهٰذه حقيقةٌ علميّةٌ وافقها القرآن رغم عدم معرفتها في عالم الجزيرة آنذاك.

---

(١) سورة الأنعام: ١٢٥.

المورد الثالث

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾[١].

فإنّ طبقة الأوزون تقوم بعكس الأشعة الضارّة بالحياة في الأرض وترجعها، فيصدق أنّ السماء ذات الرجع بمعنى إرجاع تلك الأشعّة.

المورد الرابع

قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ﴾[٢].

فإنّ تعدّد المشارق والمغارب ينسجم مع كرويّة الأرض.

المورد الخامس

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡحُبُكِ﴾[٣].

الحُبُكُ من الفعل حَبَكَ، وهو «إحكام الشيء في امتدادٍ»، فما أروع هٰذا التعبير القرآنيّ الجميل المختصر! فالسماء المحكمة في امتدادٍ من رائع البيان المنسجم تماماً مع ما في السماء من إتقانٍ وتوسّعٍ.

المورد السادس

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَا...﴾[٤].

---

(١) سورة الطارق: ١١.

(٢) سورة المعارج: ٤٠.

(٣) سورة الذاريات: ٧.

(٤) سورة الرعد: ٢.

العلم الحديث أثبت أنّ الأجرام السماويّة ترتبط فيما بينها، وتكوّن نظامها المنسجم بواسطة (الجاذبيّة)، «ولولا هٰذا الرباط الحاكم الّذي أودعه الله - تعالى - في الأرض وفي كلّ أجرام السماء ما كانت الأرض ولا كانت السماء»[١].

المورد السابع

قوله تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾[٢].

«إنّ الغلاف الصخريّ للأرض في حالة توازنٍ تامٍّ، وإذا تعرّض هٰذا التوازن إلى الاختلال في أيّة نقطةٍ على سطح الأرض، فإنّ تعديله يتمّ مباشرةً بتحريك القدر المناسب من الصهارة في نطاق الضعف الأرضيّ تحت نقطة الاختلال مباشرةً، منها أو إليها»[٣].

وينغمس الجبل ذاهباً في أعماق الأرض بأضعاف حجمه الخارجيّ من ١٠ إلى ١٥ ضعفاً من طوله الخارجيّ[٤]، ومن هنا نفهم الدقّة في تشبيه الجبل بالوتد.

---

(١) من آيات الإعجاز العلميّ (السماء)، د. زغلول راغب محمد النجار: ص ٣٤٩.

(٢) سورة النبأ: ٧.

(٣) من آيات الإعجاز العلميّ (الأرض)، د. زغلول راغب محمد النجار: ص ٢١١.

(٤) من آيات الإعجاز العلميّ (الأرض)، د. زغلول راغب محمد النجار: ص ٢١٣.

المورد الثامن

قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾[١].

قال الدكتور زغلول النجار: «يستغرق طور تخلّق الأعضاء الفترة من نهاية الأسبوع الرابع إلى نهاية الأسبوع الثامن، ويبلغ ذروة نشاطه بنهاية الأسبوع السادس (اليوم الثاني والأربعين بعد الأخصاب).

وعلى الرغم من أنّ تخلّقه يبدأ في فترةٍ مبكّرةٍ من حياة الجنين البشريّ، إلّا أنّه لا يأخذ الشكل الآدميّ إلّا بعد تخلّق العظام وكسوتها باللحم.

وتبدأ العظام الغضروفيّة في التكوّن لتستكمل انتشارها في حجم الجنين بنهاية الأسبوع الثامن، وتكسى باللحم (العضلات والجلد) بدءاً من نهاية الأسبوع السابع، وتنتهي بنهاية الأسبوع الثامن»[٢].

---

(١) سورة المؤمنون: ١٤.

(٢) من آيات الإعجاز العلميّ (خلق الإنسان)، د. زغلول راغب محمد النجار: ص ٣٣٦.

حول النبوّة

العصمة

هي المنع، فعصم في اللغة العربيّة بمعنى منع، والمعصوم في الفكر الإسلاميّ حسب مدرسة آل البيت عليهم السلام: هو الّذي امتنع من الذنب أو الخطأ أو السهو أو النسيان.

فالمعصوم كلّ كلامه حقٌّ لا ريب فيه، لا ينطق عن الهوى، والدليل على العصمة هو العقل، فالعقل قاضٍ بأنّ تبليغ الرسالة يحتاج إلى العصمة، إذ لا يتحقّق الوثوق بالمبلّغ مع احتمال خطئه في التبليغ أو نسيانه أو سهوه.

ولٰكن نجد من يتحدث عن العصمة الّتي بيّنها الإسلام على أنّها ضمان وصول التبليغ صحيحاً صافياً موثوقاً به، يتحدّث اليوم عنها بعض الناس على أنّها "إلغاءٌ للعقل" أو "تقييدٌ لمعطيات العقل".

ونقول: إنّ من العقل بمكانٍ أن يلتزم بما يتحقّق عنده واقعيّته، أو تقوم عليه الحجّة به، فإنّ من فتح عينه ورأى أمامه بحراً، لا يمكنه ولا يصح منه الاعتراض بأنّه لم يتعب نفسه، ويُعمل عقله للتوصّل إلى معرفة أن هنا بحراً أو في السماء شمساً أو...

بل تكون قيمة العقل هي في التعامل الصحيح مع الحقيقة المدركة.

والعصمة لمّا كانت ضروريّةً لصيانة التبليغ عن الله تعالى، فهي طريقٌ إلى معرفة الحقّ، والعقل ما عليه إلّا أن يلتزم بمقرّرات التبليغ بعد أن ثبت - بالعقل - حياطته بما يصونه عن التغيير والتحريف.

لا وجود للأنبياء في التاريخ

يعتقد بعض الباحثين أنّ الأنبياء شخصيّاتٌ أسطوريّةٌ لا وجود لها إلّا في كتب الديانات المعروفة من التوراة والإنجيل والقرآن، وأنّهم عندما تطوّر علم الآثار، وتعرّفوا على حضارات المنطقة الّتي يقول الدين إنّها مهد الأنبياء لم يجدوا أثراً لهم، وليس من المنطقيّ أن تختفي تلك الآثار، لا سيّما أنّ من الأنبياء من لهم الأثر الكبير في تلك البلاد كسليمان ويوسف وموسى.

والجواب: هل تمّ اكتشاف كلّ الآثار الّتي تخصّ العالم القديم؟ إنّ من المجازفة أن يُدّعى ذٰلك، ففي العراق مثلاً لم يتمّ التنقيب في ما يقارب ٩٥ بالمئة من أراضيه، فكيف يحقّ لباحثٍ أن يقدّم رؤيةً تنفي بجزمٍ وجود الأنبياء مع هٰذا الكمّ الهائل من الآثار غير المنقّب عنها في المنطقة؟!

على أنّ من كَتب التاريخ هو سلسلة الكتّاب من أتباع الملوك والدول الحاكمة، فهل يبعد منهم إخفاء ما يدلّ على وجود

الأنبياء عليهم السلام؟ لا سيّما وأنّ التدوين آنذاك كان منحصراً في فئـاتٍ قليلـةٍ مسيطرٍ عليها.

الفصل الرابع
ما بعد الموت

هل هناك شيءٌ بعد الموت؟!

خاف الإنسان من الفناء، والنهاية البائسة فتصوّر الخلود، وحلم به.

أم أنّ هناك شيئاً آخر بعد الموت؟! ما الدليل؟

إنّ مسألة ما بعد الموت مسألةٌ مهمّةٌ ترتبط بالأصل العقليّ الّذي تكلّمنا عنه، وهو الدافع إلى البحث عن الدين ودعاوى الانبياء، فإنّ ثبوت وجود حياةٍ بعد الموت أو عدمه أمرٌ مهمٌّ ينبغي أن نحدّد موقفنا منه ونحن في هٰذه الحياة.

وترتبط هٰذه القضيّة بما بلّغه الأنبياء، ولا سبيل لنا إلى معرفة ما سيجري سوى تصديقنا لهم، أو عدم تصديقنا لهم.

وتظلّ هناك تساؤلاتٌ عن ما بعد الموت، نتعرّض لاثنين منها هنا:

السؤال الاول: الجزاء الأخرويّ الّذي تحدّث عنه الدين لا يناسب

العمل، فما معنى أن يكون الإنسان مطيعاً لمدّةٍ زمنيّةٍ معيّنةٍ أو عاصياً، ليحصل على ثوابٍ لا حدود له كمّاً وكيفاً وزماناً، أو عقابٍ هائلٍ لمدّةٍ هائلةٍ؟!

والجواب: أنّ الحياة الدنيا هي مرحلة اختبارٍ، ومن الطبيعيّ أن يكشف الاختبار عن أهليّة من جرى اختباره، ليتحدّد مصيره، وهو كما لو أجريت سلسلة اختباراتٍ للقبول في عملٍ ما، ونجح الشخص في ذٰلك الاختبار، وتسلّم وظيفةً منحته مستوىً ماليّاً واجتماعيّاً كبيراً، لمدّةٍ تفوق مدّة الاختبار بشكلٍ كبيرٍ، إذ لا تتجاوز مدّة الاختبار ساعاتٍ معدودةً، بينما توفّرت له من خلال تلك الساعات حياةٌ رغيدةٌ لسنين طويلةٍ.

فإنّ الاختبار كشف لنا عن أهليّة ذٰلك الشخص، أو عدم أهليّته، ومن خلال ذٰلك الاختبار تمّت عمليّة الجزاء.

السؤال الثاني: أنّ الجنّة الّتي وعد بها المتّقون هي جنّة العقل البدويّ الّذي اهتمّ بالعيش من خلال الطعام والشراب والجنس، فوعده الدين بما يتصوّره قمة السعادة.

ولٰكن اليوم قد تكون تلك الجنّة شيئاً ثانويّاً بالنسبة لما نرغب به بوصفنا بشراً متحضّرين، لا نجد في كثرة الطعام وتنوّعه شيئاً مغرياً نسعى للإبقاء عليه، أو الاهتمام به.

والجواب: أنّ وصف الجنّة بما ذكره السؤال من طعامٍ وشرابٍ وجنسٍ - أو قل الإغراء بتوفير أساسيّات الحياة - ليس وصفاً كاملاً لها، بل هناك معيارٌ قدّمته السماء، يجعل الفضاء مفتوحاً أمام خياراتٍ أخرى، يحصل الإنسان من خلالها على ما يسعده، قال عزّ وجلّ: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ﴾[1].

تنبيهٌ: كثيراً ما تحصل الإشكالات حول الحياة الأخرى؛ بسبب تصوّر الإنسان أنّ الحياة الحقيقيّة هي هٰذه الّتي نحياها، فهي ما يلمسه ويخشى التفريط به.

وهٰذه نظرةٌ ساذجةٌ، كمن تخيّل أنّ الرحلة تنتهي بركوب الطائرة، فيحاول الاستمتاع بالطائرة بكلّ شكلٍ وطريقٍ، ويشكّ ويشكّك بالمقصد الّذي تتوجّه إليه الطائرة، تاركاً وراءه كلّ تحذيرات الربّان، ودعوة العقل.

قال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾[2]، فالدار الآخرة هي الحياة الحقيقيّة الدائمة.

---

(١) سورة الأنبياء: ١٠٢.

(٢) سورة العنكبوت: ٦٤.

الفصل الخامس
تجارب ملحدين عادوا إلى الإيمان

١ـ سير أنتوني فلو

في التاسع من كانون الأوّل عام ٢٠٠٤ فوجئ العالم بخبرٍ ما زال صداه يتردّد في الأوساط الفلسفيّة والعلميّة والثقافيّة والدينيّة، لقد أعلن أنتوني فلو – بعد أن تجاوز الثمانين من العمر – أنّه قد صار يؤمن بأنّ "هناك إلٰهاً".

وقد طُلب من أنتوني فلو مراراً أن يصدر كتاباً يعرض فيه رحلته من صبيٍّ متديّنٍ، إلى رجلٍ ملحدٍ، إلى شيخٍ في الثمانين يؤمن بوجود الإلٰه.

وأخيراً صدر عام ٢٠٠٧ الكتاب المنتظر بعنوان: (هنالك إلٰهٌ: كيف عدل أشرس ملحدٍ عن الإلحاد)، ورث فيلسوفنا عن والده رجل الدين المسيحيّ الكبير حبّ الحكمة وشغفه العقليّ، ومنهجه التحليليّ الدقيق في البحث.

ثمّ جاء دور رجالٍ تميّزوا بحرّيّة الفكر ليؤصّلوا فيه هٰذه المفاهيم،

منهم ناظر مدرسته وبعض أساتذته؛ لذلك يقول إنّه لا يعرف لحدّ الآن لماذا رفض مفهوم الألوهيّة!

في سنّ الخامسة عشرة لم يستطع التوفيق بين ما ينزل بالبشر من شرورٍ وآلامٍ، وبين أنّ الله محبٌّ لمخلوقاته رحيمٌ بهم.

عرض في بحثه (زيف علم اللاهوت) حججه الإلحاديّة، ودعا إلى اتّباع المنهج العلميّ في تفنيد مفاهيم الدين والألوهيّة، كما طالب المتديّنين بتقديم الأدلّة على وجود الإله.

يرى أنتوني فلو أنّ العلم الحديث يجلي خمسة أبعادٍ تشير إلى الإله الخالق:

أوّلاً: الكون له بدايةٌ وخرج من العدم، وقد أدرك ذلك من خلال دراسة نظريّة (الانفجار الكونيّ الأعظم).

ثانياً: تسير الطبيعة وفق قوانين ثابتةٍ مترابطةٍ، يمكن التعبير عنها بصياغاتٍ رياضيّةٍ دقيقةٍ، لا تشغل أكثر من صفحةٍ واحدةٍ.

ثالثاً: نشأة الحياة وكلّ ما فيها من دقّةٍ وغائيّةٍ وذكاءٍ من خلال دراسته لبنية جزيء (الدنا)، وطريقة أدائه لوظائفه.

رابعاً: يهيّئ الكون بما فيه من موجوداتٍ وقوانين الظروف المثلى لظهور الإنسان ومعيشته؛ إذ إنّ (فرضيّة الأكوان المتعدّدة) مثيرةٌ

للسخرية، ويجعل القول بالإله المصمم لهذا الكون أكثر قبولاً من الناحية العلميّة.

خامسا: العقل خصوصيّة الإنسان، إذ لا تستطيع اللغة الكهروكيميائيّة للمخّ أن تقوم بكلّ المهامّ، وإنتاج كلّ ما تملكه الحضارة الإنسانيّة من إبداعاتٍ؛ لذا لا بدّ من وجود عالمٍ ما وراء الطبيعة لتفسير قدرات العقل الخارقة.

ويرى فلو أنّ الفلسفة قد أنجزت مهمّتها الأساسيّة بنجاحٍ عظيمٍ عندما توصّلت إلى تفسير نشأة الوجود بوجود الإله الخالق، ليكون معدّاً لاستقبال المخلوق العاقل الحكيم الّذي هو الإنسان.

فقد كانت رحلة عقلٍ وليست رحلة إيمانٍ قلبيٍّ؛ فقد كان يؤمن بالإله الواحد ويرفض فكرة تجسّد الإله المطلق في هيئةٍ بشريةٍ تمثّلت بالمسيح، ولم يتوصّل إلى أدلّةٍ عقليّةٍ وعلميّةٍ على وجود الوحي.

فكان يقول لقد صرت أؤمن بإلٰهٍ واحدٍ أحدٍ، واجب الوجود، غير مادّيٍّ، لا يطرأ عليه التغيّر، مطلق القدرة، مطلق العلم، كامل الخير.

٢ ـ جيفري لانج

هو أستاذ الرياضيّات بجامعة كانساس بالولايات المتّحدة. ولد لعائلةٍ كاثوليكيّةٍ بمدينة برديجبورت عام ١٩٥٤. حصل على شهادة

الدكتوراه من جامعة سان فرانسسكو. تعدّ رحلته تجربةً فريدةً في الانتقال من الإلحاد إلى الإيمان واعتناق الإسلام. قرء جيفري القرآن بعد حصوله عن نسخة مترجمة منه عن طريق عائلة مسلمة من اصدقائه، وبعد قراءة القرآن أسلم... وقد سجّل لانج رحلته في كتابه (الصراع من أجل الإيمان).

الفصل السادس
نماذج من حوارات الأئمّة عليهم السلام مع الملحدين

المحاورة الأولى:

عن عليّ بن منصورٍ قال: «قال لي هشام بن الحكم: كان بمصر زنديقٌ تبلغه عن أبي عبد الله عليه السلام أشياء، فخرج إلى المدينة ليناظره فلم يصادفه بها، وقيل له إنّه خارجٌ بمكّة، فخرج إلى مكّة ونحن مع أبي عبد الله فصادفنا ونحن مع أبي عبد الله عليه السلام في الطواف، وكان اسمه عبد الملك، وكنيته أبو عبد الله، فضرب كتفه كتف أبي عبد الله عليه السلام.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: ما اسمك؟

فقال: اسمي عبد الملك.

قال: فما كنيتك؟

قال: كنيتي أبو عبد الله.

فقال له أبو عبد الله عليه السلام: فمن هٰذا الملك الّذي أنت عبده؟ أمن ملوك الأرض أم من ملوك السماء؟ وأخبرني عن ابنك عبد إلٰه السماء أم عبد إلٰه الأرض؟ قل: ما شئت تخصم.

قال هشام بن الحكم: فقلت للزنديق أما تردّ عليه؟

قال: فقبّح قولي.

فقال أبو عبد الله: إذا فرغت من الطواف فأتنا، فلمّا فرغ أبو عبد الله أتاه الزنديق، فقعد بين يدي أبي عبد الله ونحن مجتمعون عنده.

فقال أبو عبد الله عليه السلام للزنديق: أتعلم أنّ للأرض تحتاً وفوقاً؟

قال: نعم، قال فدخلت تحتها؟

قال: لا.

قال: فما يدريك ما تحتها؟

قال: لا أدري، إلّا أنّي أظنّ أن ليس تحتها شيءٌ.

فقال: أبو عبد الله عليه السلام فالظنّ عجزٌ، لما لا تستيقن؟

ثم قال أبو عبد الله: أفصعدت السماء؟

قال: لا.

قال: أفتدري ما فيها؟

قال: لا.

قال: عجباً لك! لم تبلغ المشرق، ولم تبلغ المغرب، ولم تنزل الأرض، ولم تصعد السماء، ولم تجز هناك فتعرف ما خلفهنّ، وأنت جاحدٌ بما فيهنّ، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟!

قال الزنديق: ما كلّمني بهٰذا أحدٌ غيرك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: فأنت من ذٰلك في شكٍّ، فلعله هو، ولعلّه ليس هو؟

فقال الزنديق: ولعل ذٰلك.

فقال أبو عبد الله عليه السلام: أيّها الرجل! ليس لمن لا يعلم حجّةٌ على من يعلم، ولا حجّة للجاهل يا أخا أهل مصر! تفهّم عنّي فإنّا لا نشكّ في الله أبداً، أما ترى الشمس والقمر والليل والنهار يلجان فلا يشتبهان ويرجعان، قد اضطرّا ليس لهما مكانٌ إلّا مكانهما، فإن كانا يقدران على أن يذهبا فلم يرجعان؟ وإن كانا غير مضطرّين فلم لا يصير الليل نهاراً والنهار ليلاً؟ اضطرّا والله يا أخا أهل مصر إلى دوامهما، والّذي اضطرّهما أحكم منهما وأكبر.

فقال الزنديق: صدقت.

ثمّ قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أخا أهل مصر، إنّ الّذي تذهبون إليه وتظنّون أنّه الدهر، إن كان الدهر يذهب بهم لم لا يردّهم؟ وإن كان يردّهم لم لا يذهب بهم؟ القوم مضطرّون يا أخا أهل مصر. لم السماء مرفوعةٌ والأرض موضوعةٌ؟ لم لا يسقط السماء على الأرض، لم لا تنحدر الأرض فوق طباقها ولا يتماسكان، ولا يتماسك من عليها؟

قال الزنديق: أمسكهما الله ربّهما وسيّدهما.

قال: فآمن الزنديق على يدي أبي عبد الله عليه السلام، فقال له حمران: جعلت فداك، إن آمنت الزنادقة على يدك فقد آمن الكفار على يدي أبيك. فقال المؤمن الّذي آمن على يدي أبي عبد الله عليه السلام: اجعلني من تلامذتك. فقال أبو عبد الله: يا هشام بن الحكم، خذه إليك وعلّمه، فعلّمه هشامٌ، فكان معلّم أهل الشام وأهل مصر الإيمان، وحسنت طهارته حتّى رضي بها أبو عبد الله»[١].

المحاورة الثانية:

ومن سؤال الزنديق الّذي سأل أبا عبد الله عليه السلام عن مسائل كثيرةٍ أنّه قال: كيف يعبد الله الخلق ولم يروه؟

قال: رأته القلوب بنور الإيمان، وأثبتته العقول بيقظتها إثبات العيان، وأبصرته الأبصار بما رأته من حسن التركيب وإحكام التأليف، ثمّ الرسل وآياتها والكتب ومحكماتها، واقتصرت العلماء على ما رأت من عظمته دون رؤيته.

قال: أليس هو قادرٌ أن يظهر لهم حتّى يروه فيعرفونه فيعبد على يقينٍ؟

قال: ليس للمحال[٢] جوابٌ.

---

(١) الكافي، الشيخ الكلينيّ: ج ١، ص ٧٢ و٧٣.

(٢) فإنّ ظهور ما ليس جسماً ولا يحدّ بحدٍّ للعيان محالٌ، ومن يسأل عن المحال لِمَ لَمْ يقع فهو ←

قال: فمن أين أثبت أنبياء ورسلاً؟

قال عليه السلام: إنّا لما أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذٰلك الصانع حكيماً، لم يجز أن يشاهده خلقه، ولا أن يلامسوه، ولا أن يباشرهم ويباشروه، ويحاجّهم ويحاجّوه، ثبت أنّ له سفراء في خلقه وعباده، يدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم، وما به بقاؤهم، وفي تركه فناؤهم، فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه، وثبت عند ذٰلك أنّ له معبّرون هم أنبياء الله وصفوته من خلقه، حكماء مؤدّبين بالحكمة، مبعوثين عنه، مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب، مؤيدّين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد من: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فلا تخلو الأرض من حجّةٍ يكون معه علمٌ يدلّ على صدق مقال الرسول ووجوب عدالته.

ثمّ قال عليه السلام بعد ذٰلك: نحن نزعم أنّ الأرض لا تخلو من حجّةٍ، ولا تكون الحجّة إلّا من عقب الأنبياء، ما بعث الله نبيّاً قطّ من غير نسل الأنبياء؛ وذٰلك أنّ الله شرع لبني آدم طريقاً منيراً، وأخرج من آدم نسلاً طاهراً طيّباً، أخرج منه الأنبياء والرسل، هم صفوة الله، وخلص الجوهر، طهروا في الأصلاب، وحفظوا في الأرحام، لم يصبهم سفاح

← مخطئٌ في سؤاله، فلا جواب له.

الجاهليّة، ولا شاب أنسابهم؛ لأنّ الله -عزّ وجلّ- جعلهم في موضعٍ لا يكون أعلى درجةً وشرفاً منه، فمن كان خازن علم الله، وأمين غيبه ومستودع سرّه، وحجّته على خلقه، وترجمانه ولسانه، لا يكون إلّا بهٰذه الصفة، فالحجّة لا يكون إلّا من نسلهم، يقوم مقام النبيّ ﷺ في الخلق بالعلم الّذي عنده، وورثه عن الرسول، إن جحده الناس سكت، وكان بقاء ما عليه الناس قليلاً ممّا في أيديهم من علم الرسول على اختلافٍ منهم فيه، قد أقاموا بينهم الرأي والقياس، وأنّهم إن أقرّوا به وأطاعوه وأخذوا عنه، ظهر العدل، وذهب الاختلاف والتشاجر، واستوى الأمر وأبان الدين، وغلب على الشكّ اليقين، ولا يكاد أن يقرّ الناس به ولا يطيعوا له أو يحفظوا له بعد فقد الرسول، وما مضى رسولٌ ولا نبيٌّ قطّ لم يختلف أمّته من بعده، وإنّما كان علّة اختلافهم على الحجّة وتركهم إيّاه.

قال: فما يصنع بالحجّة إذا كان بهٰذه الصفة؟ قال: قد يقتدى به ويخرج عنه الشيء بعد الشيء، مكانه منفعة الخلق وصلاحهم، فإن أحدثوا في دين الله شيئاً أعلمهم، وإن زادوا فيه أخبرهم، وإن نفدوا منه شيئاً أفادهم.

ثمّ قال الزنديق: من أيّ شيءٍ خلق الله الأشياء؟

قال: لا من شيء.

فقال: كيف يجيء من لا شيءٍ شيءٌ؟

قال عليه السلام: إنّ الأشياء لا تخلو إمّا أن تكون خلقت من شيءٍ أو من غير شيءٍ، فإن كان خلقت من شيءٍ كان معه، فإنّ ذٰلك الشيء قديمٌ، والقديم لا يكون حديثاً ولا يفنى ولا يتغيّر، ولا يخلو ذٰلك الشيء من أن يكون جوهراً واحداً ولوناً واحداً، فمن أين جاءت هٰذه الألوان المختلفة والجواهر الكثيرة الموجودة في هٰذا العالم من ضروبٍ شتّى؟ ومن أين جاء الموت إن كان الشيء الّذي أنشئت منه الأشياء حيّاً؟! ومن أين جاءت الحياة إن كان ذٰلك الشيء ميّتاً؟! ولا يجوز أن يكون من حيٍّ وميّتٍ قديمين لم يزالا، لأنّ الحيّ لا يجيء منه ميّتٌ وهو لم يزل حيّاً، ولا يجوز أيضاً أن يكون الميّت قديماً لم يزل لما هو به من الموت؛ لأنّ الميّت لا قدرة له ولا بقاء.

قال: فمن أين قالوا إنّ الأشياء أزليّةٌ؟

قال: هٰذه مقالة قومٍ جحدوا مدبّر الأشياء فكذّبوا الرسل ومقالتهم، والأنبياء وما أنبأوا عنه، وسمّوا كتبهم أساطير، ووضعوا لأنفسهم ديناً بآرائهم واستحسانهم. إنّ الأشياء تدلّ على حدوثها، من دوران الفلك بما فيه، وهي سبعة أفلاكٍ، وتحرّك الأرض ومن عليها، وانقلاب الأزمنة، واختلاف الوقت، والحوادث الّتي تحدث في العالم، من زيادةٍ ونقصانٍ، وموتٍ وبلى، واضطرار النفس إلى الإقرار بأنّ لها

صانعاً ومدبّراً، ألا ترى الحلو يصير حامضاً، والعذب مرّاً، والجديد بالياً، وكلٌّ إلى تغيّرٍ وفناءٍ؟!

قال: فلم يزل صانع العالم عالماً بالأحداث الّتي أحدثها قبل أن يحدثها؟

قال: فلم يزل يعلم فخلق ما علم.

قال: أمختلفٌ هو أم مؤتلفٌ؟

قال: لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنّما يختلف المتجزئ، ويأتلف المتبعض، فلا يقال له مؤتلفٌ ولا مختلفٌ.

قال: فكيف هو الله الواحد؟ قال: واحدٌ في ذاته، فلا واحد كواحدٍ؛ لأنّ ما سواه من الواحد متجزئ وهو -تبارك وتعالى- واحدٌ لا يتجزّئ، ولا يقع عليه العدّ.

قال: فلأيّ علّةٍ خلق الخلق وهو غير محتاجٍ إليهم، ولا مضطرٌّ إلى خلقهم، ولا يليق به العبث بنا؟

قال: خلقهم لإظهار حكمته، وإنفاذ علمه، وإمضاء تدبيره.

قال: وكيف لا يقتصر على هٰذه الدار فيجعلها دار ثوابه، ومحتبس عقابه؟

قال: إنّ هٰذه الدار دار ابتلاءٍ، ومتجر الثواب، ومكتسب الرحمة،

ملئت آفاتٍ، وطبّقت شهواتٍ؛ ليختبر فيها عبيده بالطاعة، فلا يكون دار عملٍ دار جزاءٍ.

قال: أفمن حكمته أن جعل لنفسه عدوّاً، وقد كان ولا عدوّ له، فخلق كما زعمت (إبليس)، فسلّطه على عبيده يدعوهم إلى خلاف طاعته، ويأمرهم بمعصيته، وجعل له من القوّة - كما زعمت - ما يصل بلطف الحيلة إلى قلوبهم، فيوسوس إليهم فيشكّكهم في ربّهم، ويلبس عليهم دينهم، فيزيلهم عن معرفته، حتّى أنكر قومٌ لما وسوس إليهم ربوبيّته، وعبدوا سواه، فلم سلّط عدوّه على عبيده، وجعل له السبيل إلى إغوائهم؟

قال: إنّ هٰذا العدوّ الّذي ذكرت لا تضرّه عداوته، ولا تنفعه ولايته، وعداوته لا تنقص من ملكه شيئاً، وولايته لا تزيد فيه شيئاً، وإنّما يتّقى العدوّ إذا كان في قوّةٍ يضرّ وينفع، إن هم بملك أخذه، أو بسلطان قهره، فأمّا إبليس فعبدٌ خلقه ليعبده ويوحّده، وقد علم حين خلقه ما هو وإلى ما يصير إليه، فلم يزل يعبده مع ملائكته حتّى امتحنه بسجود آدم، فامتنع من ذٰلك حسداً، وشقاوةً غلبت عليه، فلعنه عند ذٰلك، وأخرجه عن صفوف الملائكة، وأنزله إلى الأرض ملعوناً مدحوراً، فصار عدوّ آدم وولده بذٰلك السبب، ما له من السلطنة على ولده إلّا الوسوسة، والدعاء إلى غير السبيل، وقد أقرّ مع معصيته لربّه بربوبيّته.

قال: أفيصلح السجود لغير الله؟

قال: لا.

قال: فكيف أمر الله الملائكة بالسجود لآدم؟

قال: إن من سجد بأمر الله سجد لله، إذا كان عن أمر الله.

قال: فمن أين أصل الكهانة، ومن أين يخبر الناس بما يحدث؟

قال: إنّ الكهانة كانت في الجاهليّة في كلّ حين فترةٍ من الرسل، كان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور بينهم، فيخبرهم عن أشياء تحدث، وذٰلك من وجوهٍ شتّى، فراسة العين، وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفتنة الروح، مع قذفٍ في قلبه؛ لأنّ ما يحدث في الأرض من الحوادث الظاهرة فذٰلك يعلم الشيطان ويؤدّيه إلى الكاهن، ويخبره بما يحدث في المنازل والأطراف، وأمّا أخبار السماء فإنّ الشياطين كانت تقعد مقاعد استراق السمع إذ ذاك، وهي لا تحجب، ولا ترجم بالنجوم، وإنّما منعت من استراق السمع لئلّا يقع في الأرض سببٌ تشاكل الوحي من خبر السماء، فيلبس على أهل الأرض ما جاءهم عن الله، لإثبات الحجّة، ونفي الشبهة، وكان الشيطان يسترق الكلمة الواحدة من خبر السماء بما يحدث من الله في خلقه فيختطفها، ثمّ يهبط بها إلى الأرض، فيقذفها إلى الكاهن، فإذا قد زاد كلماتٍ من عنده، فيخلط الحقّ بالباطل، فما أصاب الكاهن من خبرٍ ممّا

كان يخبر به فهو ما أداه إليه الشيطان لما سمعه، وما أخطأ فيه فهو من باطل ما زاد فيه، فمنذ منعت الشياطين عن استراق السمع انقطعت الكهانة، واليوم إنّما تؤدّي الشياطين إلى كهّانها أخباراً للناس بما يتحدّثون به وما يحدثونه، والشياطين تؤدّي إلى الشياطين ما يحدث في البعد من الحوادث، من سارقٍ سرق ومن قاتلٍ قتل، ومن غائبٍ غاب، وهم بمنزلة الناس أيضاً، صدوقٌ وكذوبٌ.

قال: وكيف صعدت الشياطين إلى السماء وهم أمثال الناس في الخلقة والكثافة؟ وقد كانوا يبنون لسليمان بن داود من البناء ما يعجز عنه ولد آدم؟

قال: غلظوا لسليمان كما سُخِّرُواْ وهم خلقٌ رقيقٌ، غذائهم النسيم، والدليل على كلّ ذٰلك صعودهم إلى السماء لاستراق السمع، ولا يقدر الجسم الكثيف على الارتقاء إليها بسلّمٍ أو بسببٍ.

قال: فأخبرني عن السحر ما أصله، وكيف يقدر الساحر على ما يوصف من عجائبه؟ وما يفعل؟

قال: إنّ السحر على وجوهٍ شتّى: وجهٌ منها بمنزلة الطبّ، كما أنّ الأطبّاء وضعوا لكلّ داءٍ دواءً، فكذٰلك علم السحر، احتالوا لكلّ صحّةٍ آفةً، ولكلّ عافيةٍ عاهةً، ولكلّ معنى حيلةً. ونوعٌ آخر منه خطفةٌ وسرعةٌ، ومخاريق وخفّةٌ. ونوعٌ آخر ما يأخذ أولياء الشياطين عنهم.

قال: فمن أين علم الشياطين السحر؟

قال: من حيث عرف الأطبّاء الطبّ، بعضه تجربةٌ، وبعضه علاجٌ.

قال: فما تقول في الملكين هاروت وماروت؟ وما يقول الناس بأنّهما يعلّمان الناس السحر؟

قال: إنّهما موضع ابتلاءٍ، وموقع فتنةٍ، تسبيحهما: اليوم لو فعل الإنسان كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولو يعالج بكذا وكذا لكان كذا، أصناف السحر فيتعلّمون منهما ما يخرج عنهما، فيقولان لهم إنّما نحن فتنةٌ فلا تأخذوا عنّا ما يضرّكم ولا ينفعكم.

قال: أفيقدر الساحر أن يجعل الإنسان بسحره في صورة الكلب أو الحمار أو غير ذٰلك؟

قال: هو أعجز من ذٰلك، وأضعف من أن يغيّر خلق الله، إنّ من أبطل ما ركّبه الله وصوّره وغيّره فهو شريك الله في خلقه، تعالى الله عن ذٰلك علوّاً كبيراً! لو قدر الساحر على ما وصفت لدفع عن نفسه الهرم والآفة والأمراض، ولنفى البياض عن رأسه، والفقر عن ساحته، وإنّ من أكبر السحر النميمة، يفرّق بها بين المتحابّين، ويجلب العداوة على المتصافين، ويسفك بها الدماء، ويهدم بها الدور، ويكشف بها الستور، والنمّام أشرّ من وطأ الأرض بقدمٍ، فأقرب أقاويل السحر من الصواب أنّه بمنزلة الطبّ، إنّ الساحر عالج الرجل فامتنع من مجامعة

النساء، فجاء الطبيب فعالجه بغير ذٰلك العلاج فأبرئ.

قال: فما بال ولد آدم فيهم شريفٌ ووضيعٌ؟

قال: الشريف المطيع، والوضيع العاصي.

قال: أليس فيهم فاضلٌ ومفضولٌ؟

قال: إنّما يتفاضلون بالتقوى.

قال: فتقول إنّ ولد آدم كلّهم سواءٌ في الأصل لا يتفاضلون إلّا بالتقوى؟

قال: نعم. إنّي وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم، والأمّ حوّاء، خلقهم إلٰهٌ واحدٌ، وهم عبيده. إنّ الله -عزّ وجلّ- اختار من ولد آدم أناساً طهّر ميلادهم، وطيّب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذٰلك لأمرٍ استحقّوه من الله عزّ وجلّ. ولٰكنّ علم الله منهم حين ذرأهم أنّهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهٰؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهٰؤلاء الّذين لهم الشرف والفضل والحسب، وساير الناس سواءٌ، ألا من اتّقى الله أكرمه، ومن أطاعه أحبّه، ومن أحبّه لم يعذّبه بالنار.

قال: فأخبرني عن الله – عزّ وجلّ - كيف لم يخلق الخلق كلّهم مطيعين موحّدين وكان على ذٰلك قادراً؟

قال عليه السلام: لو خلقهم مطيعين، لم يكن لهم ثوابٌ؛ لأنّ الطاعة إذا ما كانت فعلهم لم يكن جنّةٌ ولا نارٌ، ولٰكن خلق خلقه فأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، واحتجّ عليهم برسله، وقطع عذرهم بكتبه؛ ليكونوا هم الّذين يطيعون ويعصون ويستوجبون بطاعتهم له الثواب، وبمعصيتهم إيّاه العقاب.

قال: فالعمل الصالح من العبد هو فعله، والعمل الشرّ من العبد هو فعله؟

قال: العمل الصالح من العبد بفعله، والله به أمره، والعمل الشرّ من العبد بفعله، والله عنه نهاه.

قال: أليس فعله بالآلة الّتي ركّبها فيه؟

قال: نعم. ولٰكن بالآلة الّتي عمل بها الخبر، قدر على الشرّ الّذي نهاه عنه.

قال: فإلى العبد من الأمر شيءٌ؟

قال: ما نهاه الله عن شيءٍ إلّا وقد علم أنّه يطيق تركه، ولا أمره بشيءٍ إلّا وقد علم أنّه يستطيع فعله؛ لأنّه ليس من صفة الجور والعبث والظلم وتكليف العباد ما لا يطيقون.

قال: فمن خلقه الله كافرًا أيستطيع الإيمان وله عليه بتركه الإيمان حجّةٌ؟

قال عليه السلام: إنّ الله خلق خلقه جميعاً مسلمين، أمرهم ونهاهم، والكفر اسمٌ يلحق الفعل حين يفعله العبد، ولم يخلق الله العبد حين خلقه كافراً، إنّه إنّما كفر من بعد أن بلغ وقتاً لزمته الحجّة من الله، فعرض عليه الحقّ فجحده، فبإنكاره الحقّ صار كافراً.

قال: أفيجوز أن يقدّر على العبد الشرّ، ويأمره بالخير وهو لا يستطيع الخير أن يعمله، ويعذّبه عليه؟

قال عليه السلام: إنّه لا يليق بعدل الله ورأفته أن يقدّر على العبد الشرّ ويريده منه، ثمّ يأمره بما يعلم أنّه لا يستطيع أخذه، والإنزاع عمّا لا يقدر على تركه، ثمّ يعذّبه على أمره الّذي علم أنّه لا يستطيع أخذه.

قال: بماذا استحقّ الّذين أغناهم وأوسع عليهم من رزقه الغناء والسعة، وبماذا استحقّ الفقير التقتير والتضييق.

قال عليه السلام: اختبر الأغنياء بما أعطاهم لينظر كيف شكرهم، والفقراء بما منعهم لينظر كيف صبرهم.

ووجهٌ آخر: أنّه عجّل لقومٍ في حياتهم، ولقومٍ أخر ليوم حاجتهم إليه.

ووجهٌ آخر: فإنّه علم احتمال كلّ قوم فأعطاهم على قدر احتمالهم، ولو كان الخلق كلّهم أغنياء لخربت الدنيا، وفسد التدبير، وصار أهلها

إلى الفناء، ولٰكن جعل بعضهم لبعضٍ عوناً، وجعل أسباب أرزاقهم في ضروب الأعمال، وأنواع الصناعات، وذٰلك أدوم في البقاء، وأصحّ في التدبير، ثمّ اختبر الأغنياء بالاستعطاف على الفقراء، كلّ ذٰلك لطفٌ ورحمةٌ من الحكيم الّذي لا يعاب تدبيره.

قال: فيما استحقّ الطفل الصغير ما يصيبه من الأوجاع والأمراض بلا ذنبٍ عمله، ولا جرمٍ سلف منه؟

قال عليه السلام: إنّ المرض على وجوهٍ شتّى: مرض بلوى، ومرض عقوبةٍ، ومرضٍ جعل علّةً للفناء، وأنت تزعم أن ذٰلك من أغذيةٍ رديّةٍ، وأشربةٍ وبيّةٍ، أو من علّةٍ كانت بأمّه، وتزعم أنّ من أحسن السياسة لبدنه، وأجمل النظر في أحوال نفسه، وعرف الضارّ ممّا يأكل من النافع، لم يمرض، وتميل في قولك إلى من يزعم أنّه لا يكون المرض والموت إلّا من المطعم والمشرب! قد مات أرسطو طاليس معلّم الأطبّاء، وإفلاطون رئيس الحكماء، وجالينوس شاخ ودقّ بصره، وما دفع الموت حين نزل بساحته، ولم يألوا حفظ أنفسهم، والنظر لما يوافقها، كم مريضاً قد زاده المعالج سقماً، وكم من طبيبٍ عالمٍ وبصيرٍ بالأدواء والأدوية ماهرٍ مات، وعاش الجاهل بالطبّ بعده زماناً. فلا ذاك نفعه علمه بطبّه عند انقطاع مدّته وحضور أجله، ولا هٰذا ضرّه الجهل بالطبّ مع بقاء المدّة وتأخّر الأجل.

ثمّ قال عليه السلام: إنّ أكثر الأطبّاء قالوا: إنّ علم الطبّ لم تعرفه الأنبياء، فما نصنع على قياس قولهم بعلمٍ زعموا ليس تعرفه الأنبياء الّذين كانوا حجج الله على خلقه، وأمناءه في أرضه، وخزّان علمه، وورثة حكمته، والأدلّاء عليه، والدعاة إلى طاعته؟

ثمّ إنّي وجدت أن أكثرهم يتنكّب في مذهبه سبل الأنبياء، ويكذّب الكتب المنزّلة عليهم من الله تبارك وتعالى، فهٰذا الّذي أزهدني في طلبه وحامليه.

قال: فكيف تزهد في قومٍ وأنت مؤدّبهم وكبيرهم؟

قال عليه السلام: إنّي رأيت الرجل الماهر في طبّه إذا سألته لم يقف على حدود نفسه، وتأليف بدنه، وتركيب أعضائه، ومجرى الأغذية في جوارحه، ومخرج نفسه وحركة لسانه، ومستقرّ كلامه، ونور بصره، وانتشار ذكره، واختلاف شهواته، وانسكاب عبراته، ومجمع سمعه، وموضع عقله، ومسكن روحه، ومخرج عطسته، وهيج غمومه، وأسباب سروره، وعلّة ما حدث فيه من بكمٍ وصممٍ، وغير ذٰلك، لم يكن عندهم في ذٰلك أكثر من أقاويل استحسنوها، وعللٍ فيما بينهم جوّزوها.

قال: فأخبرني عن الله أله شريكٌ في ملكه، أو مضادٌّ له في تدبيره؟

قال عليه السلام: لا.

قال: فما هٰذا الفساد الموجود في العالم؟ من سباعٍ ضاريةٍ، وهوامٍ مخوفةٍ وخلق كثير مشوّهةٍ، ودودٍ، وبعوضٍ، وحيّاتٍ، وعقارب، وزعمت أنّه لا يخلق شيئًا إلّا لعلّةٍ؛ لأنّه لا يعبث؟

قال عليه السلام: ألست تزعم أنّ العقارب تنفع من وجع المثانة والحصاة، ولمن يبول في الفراش، وأن أفضل الترياق ما عولج من لحوم الأفاعي، فإنّ لحومها إذا أكلها المجذوم بشبٍّ نفعه، وتزعم أنّ الدود الأحمر الّذي يصاب تحت الأرض نافع للأكلة؟

قال: نعم.

قال عليه السلام: فأمّا البعوض والبقّ فبعض سببه أنّه جعله أرزاق الطير، وأهان بها جبّاراً تمرّد على الله وتجبّر، وأنكر ربوبيّته، فسلّط الله عليه أضعف خلقه؛ ليريه قدرته وعظمته، وهي البعوض، فدخلت في منخره حتّى وصلت إلى دماغه فقتلته، واعلم أنّا لو وقعنا على كلّ شيءٍ خلقه الله - تعالى - لِمَ خلقه؟ ولأيّ شيءٍ أنشأه؟ لكنّا قد ساويناه في علمه، وعلمنا كلّما يعلم، واستغنينا عنه، وكنّا وهو في العلم سواءً.

قال: فأخبرني هل يعاب شيءٌ من خلق الله وتدبيره؟

قال عليه السلام: لا.

قال: فإنّ الله خلق خلقه عزلاً، أذٰلك منه حكمةٌ أم عبثٌ؟

قال: بل منه حكمةٌ.

قال: غيّرتم خلق الله، وجعلتم فعلكم في قطع الغلفة أصوب ممّا خلق الله لها، وعبتم الأغلف والله خلقه، ومدحتم الختان وهو فعلكم. أم تقولون إنّ ذٰلك من الله كان خطأً غير حكمةٍ؟!

قال عليه السلام: ذٰلك من الله حكمةٌ وصوابٌ، غير أنّه سنّ ذٰلك وأوجبه على خلقه، كما أنّ المولود إذا خرج من بطن أمه وجدنا سرته متّصلةً بسرّة أمّه، كذٰلك خلقها الحكيم فأمر العباد بقطعها، وفي تركها فسادٌ بيّنٌ للمولود والأمّ، وكذٰلك أظفار الإنسان أمر إذا طالت أن تقلّم، وكان قادراً يوم دبّر خلق الإنسان أن يخلقها خلقةً لا تطول، وكذٰلك الشعر من الشارب والرأس، يطول فيجزّ، وكذٰلك الثيران خلقها الله فحولةً، وإخصاؤها أوفق، وليس في ذٰلك عيبٌ في تقدير الله عزّ وجلّ.

قال: ألست تقول: يقول الله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ وقد نرى المضطرّ يدعوه فلا يجاب له، والمظلوم يستنصره على عدوّه فلا ينصره؟

قال عليه السلام: ويحك! ما يدعوه أحدٌ إلّا استجاب له، أمّا الظالم فدعاؤه مردودٌ إلى أن يتوب إليه، وأمّا المحقّ فإنّه إذا دعاه استجاب له، وصرف عنه البلاء من حيث لا يعلمه، أو ادّخر له ثواباً جزيلاً ليوم حاجته إليه، وإن لم يكن الأمر الّذي سأل العبد خيراً له إن أعطاه أمسك عنه، والمؤمن العارف بالله ربما عزّ عليه أن يدعوه فيما لا يدري أصوابٌ ذٰلك

أم خطأٌ، وقد يسأل العبد ربّه هلاك من لم ينقطع مدّته، أو يسأل المطر وقتاً ولعلّه أوانٌ لا يصلح فيه المطر؛ لأنّه أعرف بتدبير ما خلق من خلقه، وأشباه ذٰلك كثيرةٌ فافهم هٰذا.

قال: أخبرني أيّها الحكيم ما بال السماء لا ينزل منها إلى الأرض أحدٌ، ولا يصعد من الأرض إليها بشرٌ، ولا طريق إليها ولا مسلك؟ فلو نظر العباد في كلّ دهرٍ مرّةً من يصعد إليها وينزل لكان ذٰلك أثبت في الربوبيّة، وأنفى للشكّ وأقوى لليقين، وأجدر أن يعلم العباد أنّ هناك مدبّراً إليه يصعد الصاعد، ومن عنده يهبط الهابط.

قال عليه السلام: ان كل ما ترى في الأرض من التدبير إنّما هو ينزل من السماء ومنها يظهر، أما ترى الشمس منها تطلع، وهي نور النهار، وفيها قوام الدنيا، ولو حبست حار من عليها وهلك، والقمر منها يطلع، وهو نور الليل، وبه يعلم عدد السنين والحساب، والشهور والأيّام، ولو حبس لحار من عليها وفسد التدبير، وفي السماء النجوم الّتي يهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، ومن السماء ينزل الغيث الّذي فيه حياة كلّ شيءٍ، من الزرع والنبات والأنعام، وكلّ الخلق لو حبس عنهم لما عاشوا، والريح لو حبست اياه لفسدت الأشياء جميعاً وتغيّرت، ثمّ الغيم والرعد والبرق والصواعق، كلّ ذٰلك إنّما هو دليلٌ على أنّ هناك مدبّراً يدبّر كلّ شيءٍ ومن عنده ينزل، وقد كلّم الله موسى

وناجاه، ورفع الله عيسى ابن مريم، والملائكة تتنزل من عنده، غير أنّك لا تؤمن بما لم تره بعينك، وفيما تراه بعينك كفايةٌ أن تفهم وتعقل.

قال: فلو أنّ الله ردّ إلينا من الأموات في كلّ مئة عامٍ واحداً لنسأله عن من مضى منّا؟ إلى ما صاروا؟ وكيف حالهم؟ وماذا لقوا بعد الموت؟ وأيّ شيءٍ صنع بهم؟ ليعمل الناس على اليقين، واضمحلّ الشكّ، وذهب الغلّ عن القلوب.

قال عليه السلام: إنّ هٰذه مقالة من أنكر الرسل وكذّبهم، ولم يصدّق بما جاءوا به من عند الله، إذا خبروا وقالوا: إنّ الله أخبر في كتابه -عزّ وجلّ- على لسان أنبيائه حال من مات منّا، أفيكون أحدٌ أصدق من الله قولًا ومن رسله، وقد رجع إلى الدنيا ممّن مات خلقٌ كثيرٌ، منهم: أصحاب الكهف، أماتهم الله ثلاثمئة عامٍ وتسعةً، ثمّ بعثهم في زمان قوم أنكروا البعث؛ ليقطع حجّتهم، وليريهم قدرته وليعلموا أنّ البعث حقٌّ، وأمات الله إرمياء النبيّ عليه السلام الّذي نظر إلى خراب بيت المقدس وما حوله حين غزاهم بخت نصّر وقال: ﴿قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ﴾ ونظر إلى أعضائه كيف تلتئم، وكيف تلبس اللحم، وإلى مفاصله وعروقه كيف توصل، فلمّا استوى قاعدًا ﴿قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. وأحيى الله قوماً خرجوا عن أوطانهم هاربين من الطاعون، لا يحصى عددهم، وأماتهم

الله دهراً طويلاً، حتّى بليت عظامهم، وتقطّعت أوصالهم، وصاروا تراباً، فبعث الله في وقتٍ أحبّ أن يري خلقه قدرته نبيّاً يقال له: حزقيل، دعاهم فاجتمعت أبدانهم، ورجعت فيها أرواحهم، وقاموا كهيئة يوم ماتوا، لا يفقدون من أعدادهم رجلاً، فعاشوا بعد ذٰلك دهرًا طويلاً، وإنّ الله أمات قوماً خرجوا مع موسىعليه السلام حين توجّه إلى الله فقالوا: أرنا الله جهرةً، فأماتهم الله ثمّ أحياهم.

قال: فأخبرني عمّن قال بتناسخ الأرواح، من أيّ شيءٍ قالوا ذٰلك، وبأيّ حجّةٍ قاموا على مذاهبهم.

قالعليه السلام: إنّ أصحاب التناسخ قد خلفوا وراءهم منهاج الدين، وزيّنوا لأنفسهم الضلالات، وأمرجوا أنفسهم في الشهوات، وزعموا أنّ السماء خاويةٌ ما فيها شيءٌ ممّا يوصف، وأنّ مدبّر هٰذا العالم في صورة المخلوقين، بحجّة من روى أنّ الله – عزّ وجلّ – خلق آدم على صورته، وأنّه لا جنّة ولا نار، ولا بعث ولا نشور، والقيامة عندهم خروج الروح من قالبه وولوجه في قالبٍ آخر، فإن كان محسناً في القالب الأوّل أعيد في قالبٍ أفضل منه حسناً في أعلى درجةٍ من الدنيا، وإن كان مسيئاً أو غير عارفٍ صار في بعض الدوابّ المتعبة في الدنيا، أو هوامٍ مشوّهة الخلقة، وليس عليهم صومٌ ولا صلاةٌ، ولا شيء من العبادة أكثر من معرفة من تجب عليهم معرفته، وكلّ شيءٍ من شهوات الدنيا مباحٌ لهم،

من فروج النساء وغير ذٰلك، من الأخوات والبنات والخالات وذوات البعولة، وكذٰلك الميتة والخمر والدم، فاستقبح مقالتهم كلّ الفرق، ولعنهم كلّ الأمم، فلمّا سئلوا الحجّة زاغوا وحادوا، فكذّب مقالتهم التوراة، ولعنهم الفرقان، وزعموا مع ذٰلك أنّ إلٰههم ينتقل من قالبٍ إلى قالبٍ، وأنّ الأرواح الأزليّة هي الّتي كانت في آدم، ثمّ هلمّ جرّاً تجري إلى يومنا هٰذا في واحدٍ بعد آخر، فإذا كان الخالق في صورة المخلوق فبما يستدلّ على أنّ أحدهما خالق صاحبه؟! وقالوا: إنّ الملائكة من ولد آدم، كلّ من صار في أعلى درجةٍ من دينهم خرج من منزلة الامتحان والتصفية، فهو ملكٌ، فطوراً تخالهم نصارى في أشياء، وطوراً دهريّةً يقولون: إنّ الأشياء على غير الحقيقة، فقد كان يجب عليهم أن لا يأكلوا شيئاً من اللحمان؛ لأنّ الذرّات عندهم كلّها من ولد آدم حولوا من صورهم، فلا يجوز أكل لحوم القربات.

قال: ومن زعم أنّ الله لم يزل، ومعه طينةٌ موذيةٌ، فلم يستطع التفصّي منها إلّا بامتزاجه بها ودخوله فيها، فمن تلك الطينة خلق الأشياء!

قال: سبحان الله وتعالى! ما أعجز إلٰهاً يوصف بالقدرة لا يستطيع التفصّي من الطينة! إن كانت الطينة حيّةً أزليّةً، فكانا إلٰهين قديمين فامتزجا ودبّرا العالم من أنفسهما، فإن كان ذٰلك كذٰلك، فمن أين جاء الموت والفناء؟

وإن كانت الطينة ميّتةً فلا بقاء للميّت مع الأزليّ القديم، والميّت لا يجيء منه حيٌّ، وهٰذه مقالة الديصانيّة، أشدّ الزنادقة قولاً، وأمهنهم مثلاً، نظروا في كتبٍ قد صنّفتها أوائلهم، وحبروها بألفاظٍ مزخرفةٍ من غير أصلٍ ثابتٍ، ولا حجّة توجب إثبات ما ادّعوا، كلّ ذٰلك خلافاً على الله وعلى رسله، بما جاءوا عن الله، فأمّا من زعم أنّ الأبدان ظلمةٌ، والأرواح نورٌ، وأنّ النور لا يعمل الشرّ، والظلمة لا تعمل الخير، فلا يجب عليهم أن يلوموا أحداً على معصيةٍ، ولا ركوب حرمةٍ، ولا إتيان فاحشةٍ، وإنّ ذٰلك عن الظلمة غير مستنكرٍ؛ لأنّ ذٰلك فعلها، ولا له أن يدعو ربّاً، ولا يتضرّع إليه؛ لأنّ النور الربّ، والربّ لا يتضرّع إلى نفسه، ولا يستعبد بغيره، ولا لأحد من أهل هٰذه المقالة أن يقول: أحسنت يا محسن، أو أسأت؛ لأنّ الإساءة من فعل الظلمة، وذٰلك فعلها، والإحسان من النور، ولا يقول النور لنفسه أحسنت يا محسن! وليس هناك ثالثٌ، وكانت الظلمة على قياس قولهم أحكم فعلاً، وأتقن تدبيراً، وأعزّ أركاناً من النور؛ لأنّ الأبدان محكمةٌ. فمن صوّر هٰذا الخلق صورةً واحدةً على نعوتٍ مختلفةٍ؟! وكلّ شيءٍ يرى ظاهراً - من الزهر والأشجار والثمار والطير والدوابّ - يجب أن يكون إلٰهاً، ثمّ حبست النور في حبسها والدولة لها، وأمّا ما ادّعوا بأنّ العاقبة سوف تكون للنور، فدعوى، وينبغي على قياس قولهم أن لا يكون للنور فعلٌ؛

لأنّه أسيرٌ، وليس له سلطانٌ، فلا فعل له ولا تدبير، وإن كان له مع الظلمة تدبيرٌ، فما هو بأسيرٍ، بل هو مطلقٌ عزيزٌ، فإن لم يكن كذٰلك وكان أسير الظلمة، فإنّه يظهر في هٰذا العالم إحسانٌ، وجامع فسادٍ وشرٍّ، فهٰذا يدلّ على أنّ الظلمة تحسن الخير وتفعله، كما تحسن الشرّ وتفعله، فإن قالوا محالٌ ذٰلك، فلا نور يثبت ولا ظلمة، وبطلت دعواهم، ورجع الأمر إلى أنّ الله واحدٌ وما سواه باطلٌ، فهٰذه مقالة ماني الزنديق وأصحابه.

وأمّا من قال: النور والظلمة بينهما حكمٌ، فلا بدّ من أن يكون أكبر الثلاثة الحكم؛ لأنّه لا يحتاج إلى الحاكم إلا مغلوبٌ أو جاهلٌ أو مظلومٌ، وهٰذه مقالة المانويّة والحكاية عنهم تطول.

قال: فما قصّة ماني؟

قال عليه السلام: متفحّصٌ أخذ بعض المجوسيّة فشابها ببعض النصرانيّة، فأخطأ الملّتين ولم يصب مذهباً واحداً منهما، وزعم أنّ العالم دبّر من إلٰهين، نورٍ وظلمةٍ، وإنّ النور في حصارٍ من الظلمة على ما حكينا منه، فكذّبته النصارى، وقبلته المجوس.

قال: فأخبرني عن المجوس أفبعث الله إليهم نبيّاً؟ فإنّي أجد لهم كتبًا محكمةً ومواعظ بليغةً، وأمثالاً شافيةً، يقرّون بالثواب والعقاب، ولهم شرايع يعملون بها.

قال عليه السلام: ما من أمّةٍ إلّا خلا فيها نذيرٌ، وقد بعث إليهم نبيٌّ بكتابٍ من عند الله، فأنكروه وجحدوا كتابه.

قال: ومن هو؟ فإنّ الناس يزعمون أنّه خالد بن سنانٍ.

قال عليه السلام: إنّ خالداً كان عربيّاً بدويّاً، ما كان نبيّاً، وإنّما ذٰلك شيءٌ يقوله الناس.

قال: أفزردشت؟

قال: إنّ زردشت أتاهم بزمزمةٍ وادّعى النبوّة، فآمن منهم قومٌ وجحده قومٌ، فأخرجوه فأكلته السباع في بريّةٍ من الأرض.

قال: فأخبرني عن المجوس كانوا أقرب إلى الصواب في دهرهم أم العرب؟

قال: العرب في الجاهليّة كانت أقرب إلى الدين الحنيفيّ من المجوس؛ وذٰلك أنّ المجوس كفرت بكلّ الأنبياء، وجحدت كتبهم، وأنكرت براهينهم، ولم تأخذ بشيءٍ من سننهم وآثارهم، وإنّ كيخسرو ملك المجوس في الدهر الأوّل قتل ثلاثمئة نبيٍّ، وكانت المجوس لا تغتسل من الجنابة، والعرب كانت تغتسل، والاغتسال من خالص شرايع الحنيفيّة، وكانت المجوس لا تختن، وهو من سنن الأنبياء، وأوّل من فعل ذٰلك إبراهيم خليل الله، وكانت المجوس لا تغسل موتاها ولا

تكفنها، وكانت العرب تفعل ذٰلك، وكانت المجوس ترمي الموتى في الصحارى والنواويس، والعرب تواريها في قبورها وتلحدها، وكذٰلك السنّة على الرسل، إنّ أوّل من حفر له قبرٌ آدم أبو البشر، وألحد له لحدٌ، وكانت المجوس تأتي الأمّهات وتنكح البنات والأخوات، وحرّمت ذٰلك العرب، وأنكرت المجوس بيت الله الحرام وسمّته بيت الشيطان، والعرب كانت تحجّه وتعظمه، وتقول: بيت ربّنا، وتقرّ بالتوراة والإنجيل، وتسأل أهل الكتب وتأخذ، وكانت العرب في كلّ الأسباب أقرب إلى الدين الحنيفية من المجوس.

قال: فإنّهم احتجّوا بإتيان الأخوات أنّها سنّةٌ من آدم.

قال عليه السلام: فما حجّتهم في إتيان البنات والأمّهات وقد حرّم ذٰلك آدم، وكذٰلك نوحٌ وابراهيم وموسى وعيسى وسائر الأنبياء، وكلّ ما جاء عن الله عزّ وجلّ.

قال: ولم حرّم الله الخمر ولا لذّة أفضل منها؟

قال عليه السلام: حرّمها لأنّها أمّ الخبائث، وأسّ كلّ شرٍّ، يأتي على شاربها ساعةٌ يسلب لبّه، ولا يعرف ربّه، ولا يترك معصيةً إلّا ركبها، ولا حرمةً إلّا انتهكها، ولا رحماً ماسّةً إلّا قطعها، ولا فاحشةً إلّا أتاها، والسكران زمامه بيد الشيطان، إن أمره أن يسجد للأوثان سجد، وينقاد حيث ما قاده.

قال: فلم حرّم الدم المسفوح؟

قال عليه السلام: لأنّه يورث القساوة، ويسلب الفؤاد رحمته، ويعفّن البدن ويغيّر اللون، وأكثر ما يصيب الإنسان الجذام يكون من أكل الدم.

قال: فأكل الغدد؟

قال عليه السلام: يورث الجذام.

قال: فالميتة لم حرّمها؟

قال عليه السلام: فرقاً بينها وبين ما يذكّى ويذكر اسم الله عليه، والميتة قد جمد فيها الدم، وتراجع إلى بدنها، فلحمها ثقيلٌ غير مريءٍ؛ لأنّها يؤكل لحمها بدمها.

قال: فالسمك ميتةٌ؟

قال عليه السلام: إنّ السمك ذكاته إخراجه حيّاً من الماء، ثمّ يترك حتّى يموت من ذات نفسه؛ وذٰلك أنّه ليس له دمٌ، وكذٰلك الجراد.

قال: فلم حرّم الزنا؟

قال عليه السلام: لما فيه من الفساد، وذهاب المواريث، وانقطاع الأنساب، لا تعلم المرأة في الزنا من أحبلها، ولا المولود يعلم من أبوه، ولا أرحام موصولةٌ، ولا قرابة معروفةٌ.

قال: فلم حرّم اللواط؟

قال: من أجل أنّه لو كان إتيان الغلام حلالاً لاستغنى الرجال عن النساء، وكان فيه قطع النسل وتعطيل الفروج، وكان في إجازة ذٰلك فسادٌ كثيرٌ.

قال: فلم حرّم إتيان البهيمة؟

قال عليه السلام: كره أن يضبع الرجل ماءه، ويأتي غير شكله، ولو أباح ذٰلك لربط كلّ رجلٍ أتانا يركب ظهرها ويغشى فرجها، وكان يكون في ذٰلك فسادٌ كثيرٌ، فأباح ظهورها، وحرّم عليهم فروجها، وخلق للرجال النساء ليأنسوا بهنّ ويسكنوا إليهنّ، ويكنّ مواضع شهواتهم، وأمّهات أولادهم.

قال: فما علّة الغسل من الجنابة، وإن ما أتى حلالاً وليس في الحلال تدنيسٌ؟

قال عليه السلام: إنّ الجنابة بمنزلة الحيض؛ وذٰلك أنّ النطفة دمٌ لم يستحكم، ولا يكون الجماع إلّا بحركةٍ شديدةٍ، وشهوةٍ غالبةٍ، فإذا فرغ تنفّس البدن، ووجد الرجل من نفسه رائحةً كريهةً، فوجب الغسل لذٰلك، وغسل الجنابة مع ذٰلك أمانةٌ ائتمن الله عليها عبيده ليختبرهم بها.

قال: أيّها الحكيم، فما تقول فيمن زعم أنّ هٰذا التدبير الّذي يظهر في العالم تدبير النجوم السبعة؟

قال عليه السلام: يحتاجون إلى دليلٍ، إنّ هٰذا العالم الأكبر والعالم الأصغر من تدبير النجوم الّتي تسبح في الفلك، وتدور حيث دارت، متعبةٌ لا تفتر، وسائرةٌ لا تقف.

ثمّ قال: وإنّ لكلّ نجمٍ منها موكّلٌ مدبّرٌ، فهي بمنزلة العبيد المأمورين المنهيّين، فلو كانت قديمةً أزليّةً لم تتغيّر من حالٍ إلى حالٍ.

قال: فمن قال بالطبايع؟

قال عليه السلام: القدريّة، فذٰلك قولٌ من لم يملك البقاء، ولا صرف الحوادث، وغيّرته الأيّام والليالي، لا يرد الهرم، ولا يدفع الأجل، وما يدري ما يصنع به.

قال: فأخبرني عمّن يزعم أنّ الخلق لم يزل يتناسلون ويتوالدون، ويذهب قرنٌ ويجيء قرنٌ، وتفنيهم الأمراض والأعراض، وصنوف الآفات، ويخبرك الآخر عن الأوّل، وينبئك الخلف عن السلف، والقرون عن القرون، أنّهم وجدوا الخلق على هٰذا الوصف بمنزلة الشجر والنبات، في كلّ دهرٍ يخرج منه حكيمٌ عليمٌ بمصلحة الناس، بصيرٌ بتأليف الكلام، ويصنّف كتاباً قد حبره بفطنته، وحسّنه بحكمته، قد جعله حاجزاً بين الناس، يأمرهم بالخير ويحثّهم عليه، وينهاهم عن السوء والفساد، ويزجرهم عنه؛ لئلّا يتهارشوا، ولا يقتل بعضهم بعضًا.

قال عليه السلام: ويحك! إنّ من خرج من بطن أمّه أمس، ويرحل عن

الدنيا غدًا لا علم له بما كان قبله، ولا ما يكون بعده، ثمّ إنّه لا يخلو الإنسان من أن يكون خلق نفسه، أو خلقه غيره، أو لم يزل موجودًا، فما ليس بشيءٍ ليس يقدر أن يخلق شيئاً وهو ليس بشيءٍ، وكذٰلك ما لم يكن فيكون شيئاً، يسأل فلا يعلم كيف كان ابتداؤه، ولو كان الإنسان أزليّاً لم تحدث فيه الحوادث؛ لأنّ الأزليّ لا تغيّره الأيّام، ولا يأتي عليه الفناء، مع أنّا لم نجد بناءً من غير بانٍ، ولا أثراً من غير مؤثّرٍ، ولا تأليفاً من غير مؤلّفٍ، فمن زعم أنّ أباه خلقه، قيل: فمن خلق أباه، ولو أنّ الأب هو الّذي خلق ابنه، لخلقه على شهوته، وصوّره على محبّته، ولملك حياته، ولجاز فيه حكمه، ولٰكنّه إن مرض فلم ينفعه، وإن مات فعجز عن ردّه، إنّ من استطاع أن يخلق خلقاً وينفخ فيه روحاً حتّى يمشي على رجليه سويّاً يقدر أن يدفع عنه الفساد.

قال: فما تقول في علم النجوم؟

قال عليه السلام: هو علمٌ قلّت منافعه، وكثرت مضرّاته؛ لأنّه لا يدفع به المقدور، ولا يتّقى به المحذور، إنّ خبر المنجّم بالبلاء لم ينجه التحرّز من القضاء، وإن أخبر هو بخيرٍ لم يستطع تعجيله، وإن حدث به سوءٌ لم يمكنه صرفه، والمنجّم يضادّ الله في علمه، بزعمه أن يردّ قضاء الله عن خلقه.

قال: فالرسول أفضل أم الملك المرسل إليه؟

قال عليه السلام: بل الرسول أفضل.

قال: فما علّة الملائكة الموكّلين بعباده، يكتبون عليهم ولهم، والله عالم السرّ وما هو أخفى؟

قال: استعبدهم بذٰلك، وجعلهم شهوداً على خلقه، ليكون العباد لملازمتهم إيّاهم أشدّ على طاعة الله مواظبةً، وعن معصيته أشدّ انقباضًا، وكم من عبدٍ يهمّ بمعصيته فذكر مكانهما فارعوى وكفّ، فيقول ربّي يراني، وحفظتي عليّ بذٰلك تشهد، وإنّ الله برأفته ولطفه أيضاً وكّلهم بعباده، يذبّون عنهم مردة الشيطان وهوام الأرض وآفاتٍ كثيرةً من حيث لا يرون بإذن الله، إلى أن يجيء أمر الله.

قال: فخلق الخلق للرحمة أم للعذاب؟

قال عليه السلام: خلقهم للرحمة، وكان في علمه قبل خلقه إيّاهم أنّ قوماً منهم يصيرون إلى عذابه بأعمالهم الرديّة وجحدهم به.

قال: يعذّب من أنكر فاستوجب عذابه بإنكاره، فبم يعذّب من وحّده وعرفه؟

قال عليه السلام: يعذّب المنكر لإلٰهيّته عذاب الأبد، ويعذّب المقرّ به عذاب عقوبةٍ لمعصيته إيّاه فيما فرض عليه، ثمّ يخرج، ولا يظلم ربّك أحداً.

قال: فبين الكفر والإيمان منزلةٌ؟

قال عليه السلام: لا.

قال: فما الإيمان وما الكفر؟

قال عليه السلام: الإيمان أن يصدّق الله فيما غاب عنه من عظمة الله، كتصديقه بما شاهد من ذٰلك وعاين، والكفر الجحود.

قال: فما الشرك وما الشكّ؟

قال عليه السلام: الشرك هو أن يضمّ إلى الواحد الّذي ليس كمثله شيءٌ آخر، والشكّ: ما لم يعتقد قلبه شيئاً.

قال: أفيكون العالم جاهلاً؟

قال عليه السلام: عالمٌ بما يعلم، وجاهلٌ بما يجهل.

قال: فما السعادة وما الشقاوة؟

قال عليه السلام: السعادة سبب الخير، تمسّك به السعيد فيجرّه إلى النجاة، والشقاوة سبب خذلانٍ، تمسّك به الشقيّ فيجره إلى الهلكة، وكلٌّ بعلم الله.

قال: أخبرني عن السراج إذا انطفأ أين يذهب نوره؟

قال عليه السلام: يذهب فلا يعود.

قال: فما أنكرت أن يكون الإنسان مثل ذٰلك، إذا مات وفارق الروح البدن لم يرجع إليه أبداً، كما لا يرجع ضوء السراج إليه أبدا إذا انطفأ؟

قال عليه السلام: لم تصب القياس، إنّ النار في الأجسام كامنةٌ، والأجسام قائمةٌ بأعيانها كالحجر والحديد، فإذا ضرب أحدهما بالآخر، سقطت من بينهما نارٌ، تقتبس منها سراج له ضوءٌ، فالنار ثابتٌ في أجسامها، والضوء ذاهبٌ، والروح: جسمٌ رقيقٌ قد ألبس قالباً كثيفاً، وليس بمنزلة السراج الّذي ذكرت، إنّ الّذي خلق في الرحم جنينا من ماءٍ صافٍ، وركّب فيه ضروباً مختلفةً -من عروقٍ وعصبٍ وأسنانٍ وشعرٍ وعظامٍ وغير ذٰلك- هو يحييه بعد موته، ويعيده بعد فنائه.

قال: فأين الروح؟

قال عليه السلام: في بطن الأرض حيث مصرع البدن إلى وقت البعث.

قال: فمن صلب فأين روحه؟

قال عليه السلام: في كفّ الملك الّذي قبضها حتّى يودعها الأرض.

قال: فأخبرني عن الروح أغير الدم؟

قال عليه السلام: نعم. الروح على ما وصفت لك، مادّتها من الدم، ومن الدم رطوبة الجسم، وصفاء اللون، وحسن الصوت، وكثرة الضحك، فإذا جمد الدم فارق الروح البدن.

قال: فهل يوصف بخفّةٍ وثقلٍ ووزنٍ؟

قال عليه السلام: الروح بمنزلة الريح في الزقّ، إذا نفخت فيه امتلأ الزقّ

منها، فلا يزيد في وزن الزقّ ولوجها فيه، ولا ينقصها خروجها منه، كذٰلك الروح ليس لها ثقلٌ ولا وزنٌ.

قال: فأخبرني ما جوهر الريح؟

قال عليه السلام: الريح هواءٌ إذا تحرّك يسمّى ريحاً، فإذا سكن يسمّى هواءً، وبه قوام الدنيا، ولو كفّت الريح ثلاثة أيّامٍ لفسد كلّ شيءٍ على وجه الأرض ونتن؛ وذٰلك أنّ الريح بمنزلة المروحة، تذبّ وتدفع الفساد عن كلّ شيءٍ وتطيّبه، فهي بمنزلة الروح إذا خرج عن البدن نتن البدن وتغيّر، وتبارك الله أحسن الخالقين.

قال: أفتتلاشى الروح بعد خروجه عن قالبه أم هو باقٍ؟

قال عليه السلام: بل هو باقٍ إلى وقت ينفخ في الصور، فعند ذٰلك تبطل الأشياء وتفنى، فلا حسّ ولا محسوس، ثمّ أعيدت الأشياء كما بدأها مدبّرها، وذٰلك أربعمئة سنةٍ يسبت فيها الخلق، وذٰلك بين النفختين.

قال: وأنّى له بالبعث والبدن قد بلى، والأعضاء قد تفرّقت، فعضوٌ ببلدةٍ يأكلها سباعها، وعضوٌ بأخرى تمزّقه هوامها، وعضوٌ قد صار تراباً بني به مع الطين حائطٌ؟

قال عليه السلام: إنّ الّذي أنشأه من غير شيءٍ، وصوّره على غير مثالٍ كان سبق إليه، قادرٌ أن يعيده كما بدأه.

قال: أوضح لي ذٰلك.

قال عليه السلام: إنّ الروح مقيمةٌ في مكانها، روح المحسن في ضياءٍ وفسحةٍ، وروح المسيء في ضيقٍ وظلمةٍ، والبدن يصير تراباً كما منه خلق، وما تقذف به السباع والهوام من أجوافها ممّا أكلته ومزّقته، كلّ ذٰلك في التراب محفوظٌ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرّةٍ في ظلمات الأرض، ويعلم عدد الأشياء ووزنها، وإنّ تراب الروحانيّين بمنزلة الذهب في التراب، فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور، فتربو الأرض ثمّ تمخض مخض السقاء، فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء، والزبد من اللبن إذا مخض، فيجتمع تراب كلّ قالبٍ إلى قالبه، فينتقل بإذن الله القادر إلى حيث الروح، فتعود الصور بإذن المصوّر كهيئتها، وتلج الروح فيها، فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيئاً.

قال: فأخبرني عن الناس يحشرون يوم القيامة عراةً؟

قال عليه السلام: بل يحشرون في أكفانهم.

قال: أنّى لهم بالأكفان وقد بليت؟!

قال عليه السلام: إنّ الّذي أحيا أبدانهم جدّد أكفانهم.

قال: فمن مات بلا كفنٍ؟

قال عليه السلام: يستر الله عورته بما يشاء من عنده.

قال: أفيعرضون صفوفاً؟

قال عليه السلام: نعم. هم يومئذٍ عشرون ومئة ألف صفٍّ في عرض الأرض.

قال: أوليس توزن الأعمال؟

قال عليه السلام: لا. إنّ الأعمال ليست بأجسامٍ، وإنّما هي صفة ما عملوا، وإنّما يحتاج إلى وزنٍ الشيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها أو خفّتها، وإنّ الله لا يخفى عليه شيءٌ.

قال: فما معنى الميزان؟

قال عليه السلام: العدل.

قال: فما معناه في كتابه: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُۥ﴾؟

قال عليه السلام: فمن رجح عمله.

قال: فأخبرني أوليس في النار مقتنعٌ أن يعذب خلقه بها دون الحيّات والعقارب؟

قال عليه السلام: إنّما يعذّب بها قومًا زعموا أنّها ليست من خلقه، إنّما شريكه الّذي يخلقه، فيسلّط الله عليهم العقارب والحيّات في النار؛ ليذيقهم بها وبال ما كذبوا عليه، فجحدوا أن يكون صنعه.

قال: فمن أين قالوا: «إنّ أهل الجنّة يأتي الرجل منهم إلى ثمرةٍ يتناولها، فإذا أكلها عادت كهيئتها»؟

قال عليه السلام: نعم ذٰلك على قياس السراج، يأتي القابس فيقتبس عنه، فلا ينقص من ضوئه شيئًا، وقد امتلت الدنيا منه سراجًا.

قال: أليسوا يأكلون ويشربون، وتزعم أنّه لا يكون لهم الحاجة؟

قال عليه السلام: بلى؛ لأنّ غذاءهم رقيقٌ لا ثقل له، بل يخرج من أجسادهم بالعرق.

قال: فكيف تكون الحوراء في جميع ما أتاها زوجها عذراء؟

قال عليه السلام: لأنّها خلقت من الطيب لا يعتريها عاهةٌ، ولا يخالط جسمها آفةٌ. ولا يجري في ثقبها شيءٌ، ولا يدنّسها حيض، فالرحم ملتزقةٌ ملدم؛ إذ ليس فيها لسوى الإحليل مجرى.

قال: فهي تلبس سبعين حلّةً ويرى زوجها مخّ ساقها من وراء حللها وبدنها؟

قال عليه السلام: نعم. كما يرى أحدكم الدراهم إذا لقيت في ماءٍ صافٍ قدره قدر رمحٍ.

قال: فكيف تنعّم أهل الجنة بما فيه من النعيم، وما منهم أحدٌ إلّا وقد فقد ابنه وأباه أو حميمه أو أمه، فإذا افتقدوهم في الجنّة لم يشكوا في مصيرهم إلى النار، فما يصنع بالنعيم من يعلم أنّ حميمه في النار ويعذّب؟

قال عليه السلام: إنّ أهل العلم قالوا: إنهم ينسون ذكرهم. بعضهم انتظروا قدومهم، ورجوا أن يكونوا بين الجنّة والنار في أصحاب الأعراف.

قال: فأخبرني عن الشمس أين تغيب؟

قال عليه السلام: إنّ بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبّة دار بها الفلك إلى بطن السماء صاعدةً أبداً، إلى أن تنحطّ إلى موضع مطلعها. يعني: أنّها تغيب في عينٍ حاميةٍ، ثمّ تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها، فتحير تحت العرش حتّى يؤذن لها بالطلوع، ويسلب نورها كلّ يومٍ، وتجلّل نوراً آخر.

قال: فالكرسيّ أكبر أم العرش؟

قال عليه السلام: كلّ شيءٍ خلقه الله في جوف الكرسيّ ما خلا عرشه فإنّه أعظم من أن يحيط به الكرسيّ.

قال: فخلق النهار قبل الليل؟

قال: خلق النهار قبل الليل، والشمس قبل القمر، والأرض قبل السماء، ووضع الأرض على الحوت، والحوت في الماء، والماء في صخرةٍ مجوّفةٍ، والصخرة على عاتق ملك، والملك على الثرى، والثرى على الريح العقيم، والريح على الهواء، والهواء تمسكه القدرة، وليس تحت الريح العقيم إلّا الهواء والظلمات، ولا وراء ذٰلك سعةٌ ولا ضيقٌ، ولا

شيء يتوهّم، ثمّ خلق الكرسيّ، فحشاه السماوات والأرض، والكرسيّ أكبر من كلّ شيءٍ خلقه الله، ثمّ خلق العرش فجعله أكبر من الكرسي»[١].

أقول: نقلنا هٰذه المحاورة بين الإمام عليه السلام والزنديق رغم طولها؛ لما حوته من أجوبةٍ لا زال بعضها حيّاً إلى اليوم، بل فيها من المعارف ما ينبغي للمؤمن التدبّر فيه كثيراً، والاستفادة منه، ولا يخفى أنّ بعض ما أفادته الرواية الشريفة مبنيٌّ على الرمز أو التقريب بالمحسوس المدرك، والسبب هو أنّ العلم كان محدوداً لا يمكن إيضاح الحقائق لتلك الحقبة بأكثر من ذٰلك، بل هٰذا هو الشأن في كلّ زمانٍ، وكلّ حزبٍ بما لديهم فرحون، ولله أمرٌ هو بالغه.

(١) الاحتجاج، الشيخ الطبرسيّ: ج ٢، ص ٧٧ وما بعدها.

الخاتمة

ها هي رحلتنا السريعة تصل إلى ختامها، ولا بدّ من بيان أمورٍ:

الأمر الأوّل: أنّ البعد النفسيّ للإلحاد ممّا لا يكاد ينكر في توجّه من توجّه إلى إنكار وجود الله تعالى، والاعتراض على معالم الدين وحقائقه، ولٰكن يحقّ للقارئ هنا أن يتساءل: لماذا يميل هٰؤلاء إلى ذٰلك الطريق الوعرة متقحمين فيها دون تروٍّ أو بحثٍ جادٍّ؟

فنقول: هنا عدّة أشياء تدفع هٰؤلاء إلى ذٰلك المسلك:

١- الرغبة في التحرّر من الالتزامات الّتي يفرضها الدين، وهنا نجد نصّاً قرآنيّاً يحكي هٰذه الحقيقة، قال عزّ وجلّ: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾[1].

٢- الفهم الخاطئ للدين، والخلط الكبير بين معطياته الثابتة الواضحة وبين تصوّراتٍ وانطباعاتٍ دخيلةٍ لا تشكّل شيئاً من حقيقة الدين.

---

(١) سورة القيامة: ٥.

٣- الاستعراض السيّئ للدين من قبل بعض المتصدّين لإنتاج الوعي الإسلاميّ.

٤- الانبهار بمعطيات العلم الحديث، وعدم التمييز بين ما هو حقائق ثابتةٌ وبين ما هو فرضيّاتٌ ما زال العلم الحديث عاجزاً عن القطع بمضمونها، مهما حاول المتحمّسون لها الذود عنها.

الأمر الثاني: لا بدّ من بيان الحكم التكليفيّ للملحد، فالملحد هو مرتدٌّ، وحكم المرتدّ أنّه كافرٌ، فيكون نجسًا يجب الاجتناب عنه لنجاسته، ويجب قتله على الإمام عليه السلام، ولٰكن لا يحقّ لأيّ إنسانٍ التوجّه إلى قتله، بل هو أمرٌ محرّمٌ. ومن أحكامه حرمة تزويجه، وإن كان متزوّجًا حرمت عليه زوجته، وتقسّم أمواله على ورثته، ولا تقبل توبته في الدنيا، نعم تنفعه التوبة في الآخرة، وهناك تفاصيل في المقام تنظر في حلّها من الفقه الإسلاميّ.

ومن هنا فعلى الإنسان التروّي والتأمّل أكثر قبل الارتداد والخروج من الدين إلى الإلحاد.

الأمر الثالث: نؤكّد ما ذكرناه في التمهيد من أنّ الإسلام لا يفرض الاعتقاد به دون وعيٍ كاملٍ أو دليلٍ، بل يجب الاعتقاد - لا سيما في أصول الاعتقاد - عن دليلٍ.

وما يعترض المسلم من شبهٍ - إن لم يتمكّن من حلّها - عليه أن

يتروّى في أمره، فيعرضها على أهل العلم والاختصاص بالعقيدة، وهم المتكلّمون من العلماء، ويجب على العلماء البحث والمتابعة والإجابة عن شبه المعترضين.

ونذّكر هنا بأهمّيّة الاهتمام بهٰذه المتابعات وإيصالها إلى الآخر بأسلوبٍ واضحٍ، ونرجو ممّن له معرفةٌ بالدفاع عن معالم الدين التصدّي لذٰلك.

الأمر الرابع: ليس كلّ من أظهر أمراً من أمور الكفر فهو كافرٌ، بل هناك الكثير منهم إمّا موسوسٌ أو متوقّفٌ بسبب الشبهة؛ فعلينا أن لا نتسرّع بالحكم بكفر الآخرين، والعمل على البيان والتوضيح وحلّ الشبه.

الأمر الخامس: هناك حكمٌ شرعيٌّ حاصله حرمة الخوض والاطّلاع على منابع الضلال، إلّا لمن يجد في نفسه القدرة على فهم الحقّ، وعدم الانجرار إلى الشبهة لقلّة علمٍ، أو عدم وضوحٍ في الرؤية.

وليس هٰذا من الانكفاء على الذات، أو إغلاق الباب أمام الثقافة والاطّلاع أو احتكارهما، بل هو لأجل صيانة الأذهان غير المؤهّلة من الولوج في مسالك لا تحمد عقباها.

الأمر السادس: لا يمثّل هٰذا الكتاب إلّا محاولةً سريعةً لإيجاد أجوبةٍ عن القليل من شبهٍ طرحت واستطعنا الإجابة عنها، تاركين

التوسّع إلى بحثٍ موسّعٍ حول النظريّات العلميّة والتعارض مع الدين، وإلى جهود الآخرين من الباحثين.

الأمر السابع: لا يمثّل السياسيّون -مهما ادّعوا أو ظهر منهم- الدين، إنّما يمثّله العلماء الصادقون، بحدود تخصّصاتهم، والكتب العلميّة المبيّنة لحقائق الدين، **المفسّرة** لكلام الله تعالى (القرآن الكريم)، وكلام الحجج المعصومين عليهم السلام (السنّة الشريفة)؛ ومن هنا فلا تمثّل الاجتهادات والأفهام المختلفة أيضاً حقيقة الدين إلّا بنحوٍ نسبيٍّ، وهٰذا لا يلغي وجود قطعيّات الدين، بل لا يلغي حجّيّة الاجتهادات في مجالها المعيّن.

المصادر

١ – القرآن الكريم.

٢ – الكافي، الشيخ الكلينيّ.

٣ – علل الشرائع، الشيخ الصدوق.

٤ – شكّ داروين، د. ستيفن ماير، ترجمة الدكتور موسى إدريس والدكتور مؤمن الحسن وآخرون، دار الكتاب للنشر والتوزيع، الإسماعيليّة، مصر.

٥ – موجز تاريخ الزمن، ستيفن هوكنغ، ترجمة أدهم السمان، طبع دار طلّاس للدراسات والنشر.

٦ – أساسيّاتٌ عامّةٌ في علم الفسيولوجيا، الدكتور رشدي فتوح عبد الفتاح، طبع ذات السلاسل للطباعة والنشر والتوزيع، سنة ١٩٨٨ م.

٧ – معجم مقاييس اللغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ، دار إحياء التراث العربيّ.

٨ – محنتي مع القرآن، عباس عبد النور، دمنهور، جمهوريّة مصر العربيّة، ٢٠٠٤.

٩- منظومتنا الشمسيّة وموضعها من الكون.. المصير أو الصدفة، ستيورات روس تايلور، ترجمة عاطف يوسف محمود، طبع المركز القوميّ للترجمة، ط الأولى، القاهرة - مصر.

١٠- كمال الدين وتمام النعمة، الشيخ الصدوق.

١١- وسائل الشيعة، محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ، طبعة مؤسّسة آل البيت عليهم السلام.

١٢- الله والعقل والكون، بول ديفز، ترجمة الدكتور سعد الدين خرفان ووائل بشير الأناسي، منشورات دار علاء الدين، سوريّا - دمشق، الطبعة السادسة ٢٠٠٨.

فهرس المحتويات

الإهداء ٥

مقدّمة المركز ٧

مقدّمةٌ ٩

تمهيد ١١

نبذةٌ عن تاريخ الإلحاد ١١

مدخلٌ مختصرٌ حول نظريّة المعرفة ١٥

الفصل الأوّل في مسائل ثلاثٍ ٢١

المسألة الأولى: منشأ الدين ٢١

المنشأ الصحيح للدين ٢٣

الجهل منشأ الدين ٢٤

أهمّيّة الدين ٢٦

المسالة الثانية: نشأة الكون ٢٩

وقفةٌ مع السؤال الأوّل ٣١

وقفةٌ مع السؤال الثاني ٣٢

تذكيرٌ ٣٤
سبب وجود العالم.. الصانع الحكيم أم العدم؟ ٣٥
المسألة الثالثة: نشأة الإنسان ٣٨
تصريحٌ مهمٌّ ٤١
الفصل الثاني العقيدة الإسلاميّة بين الرفض والقبول ٤٣
وجود الخالق ٤٣
الدليل على وجود الخالق ٤٣
الدليل الأوّل: دليل الحدوث ٤٣
وقفةٌ منهجيّةٌ ٤٤
قالوا.. ونقول.. ..... ٤٥
الدليل الثاني: دليل النظام والدقّة في التكوين ٤٧
الكائن الحيّ.. الحيوان ٤٨
الدليل الثالث: المعجزة ٥٣
الدليل الرابع: دليل الاحتمال. ٥٥
ما هو الله؟ ٥٨
مقدّمةٌ لا بدّ منها ٥٨
النتيجة ٥٩
أبعاد التوحيد ٦٠
الفصل الثالث في النبوّة ٦٣

إعجاز القرآن ٦٥
المقام الأوّل نبذةٌ من الآيات الّتي ادّعوا منافتها للإعجاز ٦٧
المورد الأوّل: السماوات السبع.. والفلك الحديث ٦٧
تتميمٌ ٦٩
المورد الثاني ٧١
المورد الثالث ٧٣
المورد الرابع: القسم في القرآن ٧٦
المورد الخامس: ما ادّعوه من ركّةٍ في البيان القرآنيّ ٧٨
المورد السادس ٨٢
المورد السابع: اليهود شعب الله المختار! ٨٦
تنبيهٌ ٨٨
المورد الثامن ٨٨
تتميمٌ ٩٠
المورد التاسع ٩١
المورد العاشر ٩٢
وأخيرًا.. نقطةٌ منهجيّةٌ ٩٦
المقام الثاني نبذةٌ عن الآيات الّتي وافقت العلم الحديث ١٠٣
المورد الأوّل ١٠٣
المورد الثاني ١٠٤

المورد الثالث ١٠٥
المورد الرابع ١٠٥
المورد الخامس ١٠٥
المورد السادس ١٠٥
المورد السابع ١٠٦
المورد الثامن ١٠٧
حول النبوّة ١٠٨
العصمة ١٠٨
لا وجود للأنبياء في التاريخ ١٠٩
الفصل الرابع ما بعد الموت ١١١
الفصل الخامس تجارب ملحدين عادوا إلى الإيمان ١١٥
الفصل السادس نماذج من حوارات الأئمّة عليهم السلام مع الملحدين ١١٩
المحاورة الأولى ١١٩
المحاورة الثانية ١٢٢
الخاتمة ١٥٩
المصادر ١٦٣
فهرس المحتويات ١٦٥

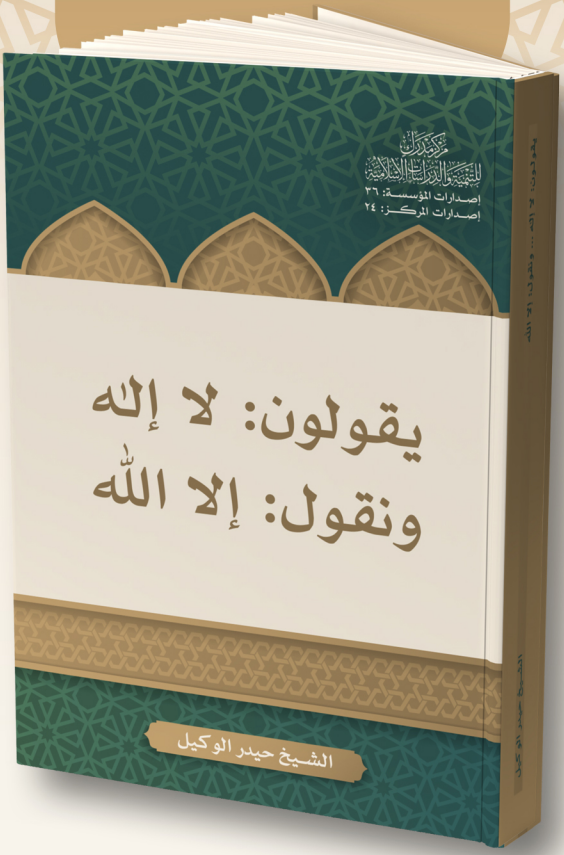

مؤسسة دار الحكمة للثقافة والعلوم الإسلامية
العراق-النجف الاشرف-شارع الكوفة
www.darhikma.net